اجاثا كريستي

الطائر الجريح



أجاثا كريستي

- ☐ الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى 103 لغات.
- ☐ بيع من كتبها أكثر من 650 مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.
- ☐ كاتبة روايات بوليسية، ولدت في جنوب غرب إنجلترا من أب أميركي وأم إنجليزية، لكنها تقول " إني إنجليزية ". تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعاً. فرواياتها كبيرة متكاملة، فيها عشرات الشخصيات الحيَّة التي يشعر بها الإنسان دائماً. لا تترك شخصية تظهر في رواية لها دون أن توضح كل معالمها في لمسات سريعة طريفة مهما كان دور هذه الشخصيَّة في الرواية، كما تميَّزت أيضاً بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. إنّها كاتبة فاضلة ليس في كتاباتها ما يخجل الآباء أن يطلع عليه الأبناء. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمَّنت أيضا أهدافاً إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل. ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل. س.	مسقط	1,5 ريال
الأردن	1,5 دينار	مصر	10 جنيه
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	5 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1,5 دينار	اليمن	400 ريال

DAR MUSIC FOR PRESS, PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION, S.a.R.L. JOUNIEH-LEBANON
ISBN 9953-38-200-X
9 789953 382005

الطائر الجريح

برنارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرَّبة

الطائر الجريح

وقصص أخرى

(60)

تأليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب الراحل

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

المركز الدولي

للصحافة والنشر والتوزيع ش.م.م.

ص.ب 374 جونيه – لبنان

تلفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

البريد الإلكتروني info@darmusic.net

www.darmusic.net

قام بعون الله الأستاذان / **أميرة عبد القادر محمد - ساري نصار**

مشكورين بمراجعة هذا الكتاب وتدقيقه وتصويب أخطائه اللغوية والمطبعية.

الغلاف بريشة الفنان

سمير غصن

- 1 -

الرجل الغامض

كان ذلك في عيد رأس السنة الميلادية ..

وكان الأعضاء الكبار المدعوون إلى حفلة عيد الميلاد مجتمعين في القاعة الكبرى بمنزل "**رويستون**" .

وكان السيد "**ساترويت**" سعيدا لانصراف الصغار إلى مضاجعهم ؛ لأنه لم يكن يحب دعاباتهم الصبيانية في مثل هذه المناسبات .

إنه رجل في الثانية والستين من عمره ، جاف العود، محني القامة بعض الشيء ، ينم وجهه عن الفضول الشديد ، والاهتمام البالغ بما تنطوي عليه حياة الناس من أسرار . ويمكن القول إنه عاش حياته كلها وهو جالس في الصف الأمامي يرقب ما يجري على مسرح الحياة ويشاهد الطبائع البشرية وهي تتكشف أمام عينيه . ولكنه الآن فقط بعد أن أصبح في قبضة الشيخوخة ، وجد نفسه شديد الميل إلى التخلي عن موقف المشاهد ، ثم الاشتراك في مسرحية الحياة نفسها !

ولم يكن عدد الذين دعوا إلى الحفلة كبيرا ، وكان بينهم "**توم إيفشام**" صاحب البيت ، وهو رجل لطيف ودود ، وزوجته المهتمة بالشؤون السياسية، والتي كانت، قبل زواجها منه ، تدعى السيدة "**لوراكين**" . وكان بينهم أيضًا السيد "**ريتشارد كونوي**" ، الجندي ، والرحالة ، والصياد البارع هذا بالإضافة إلى بعض الشبان والشابات الذين لم يتذكر السيد "**ساترويت**" أسماءهم وكذلك آل "**بورتال**" !

ولم يكن ثمة أدنى شك في أنه متمتع بالمواهب التي تمنحه الحق في هذه المشاركة، فقد كان يدرك ، بالغريزة ، متى تتجمع العناصر التي تنبىء بوقوع حادث مثير من أحداث الحياة .

أي أنه ، كحصان الحروب يشم رائحتها . ومنذ وصوله إلى منزل "**رويستون**" في أصيل ذلك اليوم ، وهو يشم رائحة حادث مثير على وشك الوقوع .

وكان السيد والسيدة "**بورتال**" هما في الواقع موضع اهتمام السيد "**ساترويت**" . إنه لم يكن قد رأى "**أليكس بورتال**" من قبل ، ولكنه كان يعرف عنه كل شيء . كان يعرف أباه وجده . وكان "**أليكس**" ، مثل أسلافه ، ذهبي الشعر، أزرق العينين ، في نحو الأربعين من عمره ، مشغوفا بالرياضة والصيد ، واقعيا في تفكيره وسلوكه . وعلى الجملة لم يكن فيه ما ينم عن الشذوذ ، وإنما هو رجل إنجليزي عادي متزن سليم التفكير .

ولكن زوجته كانت تختلف عنه . فهي – كما عرف السيد "**ساترويت**" – أسترالية الأصل وكان "**أليكس بورتال**" قد التقى بها في "**أستراليا**" في أثناء رحلة له هناك ، فتبادلا الحب ، ثم عاد هو بها إلى "**إنجلترا**" . ولم تكن قد شاهدت "**إنجلترا**" قبل زواجها . ومع هذا فقد أحس السيد "**ساترويت**" ، بغريزته ، أنها ليست كالأستراليات اللاتي شاهدهن .

إنه الآن يرقبها خلسة ، وبدقة : امرأة مثيرة للانتباه ، جداً .

فهي ، رغم سكونها وصمتها ، تفيض بالحيوية العارمة . هذا هو السر ! وهي وإن لم تكن رائعة الجمال ، إلا أنك لا تملك نفسك من الإحساس بجاذبيتها وسحرها . ولكن السؤال المهم الذي ظل يلح على ذهن السيد "**ساترويت**" هو : "لماذا تصبغ السيدة "**بورتال**" شعرها ؟" .

لقد كانت الصبغة متقنة بحيث لا يمكن أن يلحظها إلا امرأة مثلها أو رجل ركز انتباهه عليها مثل السيد "**ساترويت**" . وكان سر عجبه أن معظم النساء ذوات الشعر الأسود يصبغنه باللون الأسود ، كما تفعل السيدة "**بورتال**" .

إن كل شيء في تلك السيدة كان يثيره ويغري فضوله . فقد خامره الشعور بأنها إما أن تكون سعيدة جداً في حياتها ، أو شقية جداً ، ولكنه لم يعرف على وجه اليقين أيهما أصح ! وقد أحس بالضيق لهذا السبب ، وأكثر من هذا شعر بأن لها تأثيرا عجيبا في زوجها .

وقال السيد "**ساترويت**" لنفسه :

"إنه يقدّسها ، ولكنه ، لسبب ما ، وهذا هو العجب ، يخشاها . ." .

لقد كان الواضح للجميع أن "**أليكس بورتال**" ، زوجها ، يسرف في الشراب ، ثم يختلس النظر إليها بطريقة مثيرة للانتباه والتساؤل .

وأحس السيد "**ساترويت**" بغريزته ، أن الحدث المرتقب سيتركز في هذين الزوجين "**أليكس بورتال**" وزوجته !

وأفاق من تأملاته على قول صاحب البيت "**إيفشام**" ، بعد أن أعلنت الساعة منتصف الليل :

– لقد بدأ الآن عام جديد ، وأرجو أن يكون عاما سعيدا للجميع .

وقالت زوجته السيدة "**لورا**" :

– إن بدء عام جديد يجعل الإنسان أحيانا يرتدّ بالذاكرة إلى سنوات عمره السابقة ، وإلى أصدقائه الذين كان يشترك معهم في أناشيد عيد الميلاد .

وهنا تململ زوجها "**إيفشام**" ، وقال :

– أوه .. كفى يا "**لورا**" .. ليس هذا الوقت مناسبا !

ثم مضى إلى لوحة مفاتيح المصابيح الكهربائية ، وأضاء مصباحا آخر ، بينما قالت زوجته السيدة" "**لورا**" في لهجة اعتذار :

– أوه .. ما أشد غبائي ! لا شك أني ذكرته بصديقه الحميم السيد "**كابل**" .

وقالت "**اليانور بورتال**" بصوتها العذب الذي جعل السيد "**ساترويت**" يظن أنه سمعه من قبل .. يوما ما :

– السيد "**كابل**" ؟ !

– نعم . إنه الرجل الذي كان يمتلك هذا البيت من قبل . لقد انتحر بأن أطلق على نفسه الرصاص كما تعلمون !

– أوه ! .. إنني لن أتحدث عنه إذ إن زوجي العزيز يتألم من هذا الحديث فلاشك أنها كانت صدمة عنيفة له؛ لأنه كان هنا عندما انتحر صديقه السيد "**كابل**" .

وقد كنت أيضًا هنا يا سيد "**ريتشارد**" أليس كذلك ؟

– بلى يا سيدة "**لورا**" .

وجمعت السيدة "**لورا**" أدوات التطريز بين يديها ، ثم قالت وهي تنظر إلى السيدة "**بورتال**" :

– لقد انتهى الاحتفال بعيد رأس السنة ، فماذا نفعل الآن ؟

فنهضت اليانور "**بورتال**" بسرعة ، وقالت في غير اهتمام :

– إلى الفراش فورا .

وقال السيد "**ساترويت**" لنفسه ، وهو يوقد لها قنديلها :

"إنها تبدو شديدة الامتقاع ، ولم تكن كذلك عادة" .

تناولت منه القنديل في صمت ، ومضت ببطء نحو السلم المؤدي إلى الطابق الأعلى .

وفجأة أحس السيد "**ساترويت**" برعدة تسري في كيانه ، وبالرغبة في المضي وراءها ليطمئنها . نعم فقد كان يشعر أنها معرَّضة لخطر ما . لكنه لم يلبث أن أحس بالخجل من نفسه . فلا شك أن أعصابه الليلة ليست كما ينبغي . ولكنه رآها تتلفت وراءها قبل أن تصعد ، وتلقي على زوجها نظرة طويلة مركزة . .

وقالت السيدة "**لورا**" وهي تتلفت إلى السيد "**ساترويت**" قبل أن تمضي :

– عيد ميلاد سعيد ، وأرجو أن يكون أول رجل يدخل بيتنا الليلة أو غدا ، أسمر اللون ، أسود الشعر . فأنت تعرف هذه الخرافة يا سيد "**ساترويت**" ، عجبا!! ألا تعرفها ؟ إنه يقال إن الرجل الأسمر الذي يكون أول داخل إلى البيت في عيد رأس السنة يجلب معه الحظ السعيد لأصحاب البيت .

وبعد انصراف السيدتين ، تقارب الرجال الأربعة حول نار المدفأة ، وراحوا يتبادلون الحديث في شتى الموضوعات حتى طرقوا الحديث عن صاحب البيت السابق ، المنتحر ، فقال السيد "**ريتشارد كونوي**" :

– كنت تعرف "**ديريك كابل**" يا سيد "**ساترويت**" . أليس كذلك ؟

– بلى . قليلا .

– وأنت يا "**بورتال**" ؟؟

– لا ، لم أره قط .

وقد قالها "**أليكس بورتال**" بعنف جعل السيد "**ساترويت**" يلتفت إليه فجأة دهشاً .

وقال "**إيفشام**" ببطء :

– إنني أكره دائما أن تشير زوجتي "**لورا**" إلى هذا الموضوع . فإن هذا البيت ، بعد الحادث بيع لرجل أعمال ثري ، ولكنه بعد عام بدأ يعلن عن بيعه بثمن منخفض ، وكثرت الشائعات عن وجود شبح فيه .. شبح صاحبه المنتحر .

ولما دفعتني "**لورا**" لترشيح نفسي عن دائرة "**كيديلبي**" ، اضطررنا للبحث عن منزل مناسب للإقامة في هذه المنطقة ، وأغراني ثمن هذا المنزل المنخفض ، فاشتريته، وسواء صدقت الشائعات عن وجود الشبح فيه أم لم تصدق ، فإن الإنسان لا يحب أن يتذكر دائما أنه يقيم في منزل انتحر فيه صديق سابق له . مسكين "**ديريك كابل**" . إننا لن نعرف أبدا لماذا قتل نفسه ؟!

قال "**أليكس بورتال**" بصوت مثقل بالشراب :

– إنه ليس أول ولا آخر رجل ينتحر بلا سبب معقول . وقال السيد "**ساترويت**" لنفسه ، وهو يتأمل وجه "**أليكس بورتال**" :

"إن هذا الرجل ليس في حالته الطبيعية .. مطلقا !! لشد ما أتمنى لو أعرف ماذا يكربه !"

وقال "**ريتشارد كونوي**" :

– يا إلهي . أنصتوا إلى عويل الرياح ! إنها ليلة عاصفة !

وقال "**بورتال**" في ضحكة مستهترة :

– ليلة تصلح لأن تكون مرتعا للأشباح . يبدو أن جميع شياطين الجحيم قد خرجت تعربد هذه الليلة .

وهنا ضحك السيد "**ريتشاردكونوي**" ، وقال :

– بناء على أقوال "**لورا**" ، إن أشد هذه الشياطين سوادا سوف يجلب لنا الحظ لو دخل الآن .. آه . ما هذا !

وكان صفير الرياح قد ارتفع إلى طبقة الصراخ ، ثم بدأ يتلاشى رويدا رويدا

عندما سمع الجميع ثلاث طرقات عالية على باب المنزل الخشبي الضخم.

وقال "**توم إيفشام**" في دهشة :

– ترى من يكون الطارق الآن ، بحق السماء ؟!

وبعد أن حملق كل منهم إلى وجه الآخر ، أردف هو قائلاً :

– لسوف أفتح الباب بنفسي . فإن الخدم الآن نيام واندفعت الرياح الباردة إلى الداخل عندما فتح الباب ، رأى أمامه رجلا طويلا، نحيل الجسم ، ملوح البشرة ، يرتدي ملابس قيادة السيارات ، وتقدم هذا الرجل إلى الداخل ، وهو يقول مبتسما في لهجة اعتذار :

– معذرة أيها السادة ، فإن سيارتي تعطلت فجأة ، وقد تركت سائقها يحاول إصلاح الخلل بها . وربما استغرق هذا الأمر ساعة أو أكثر ، والجو في الخارج قارس البرد ، ومن ثَمّ رأيت أن . .

وتوقف عن الكلام فجأة ، فقال "**إيفشام**" مكملا حديثه :

– نعم . . نعم . تفضل بالدخول واشرب معنا كأسا . أخشى ألا نستطيع أن نقدم إليك أية مساعدة لإصلاح السيارة .

– حسناً . إن السائق يجيد إصلاح السيارات بوجه عام . . واسمي – بهذه المناسبة – "**كوين**" . . "**هارلي كوين**" .

– اجلس يا سيد "**كوين**" . . أقدم إليك السيد "**ريتشارد كونوي**" ، والسيد "**أليكس بورتال**" ، والسيد "**ساترويت**" وأنا "**توم إيفشام**" .

وتبادل السيد "**كوين**" التحية مع كل منهم ، ثم جلس بالقرب من المدفأة ، وبعد أن تناول الكأس المقدمة إليه من "**توم إيفشام**" شاكرا ابتدره قائلا :

– إذن فأنت يا سيد "**كوين**" تعرف هذه النواحي جيدا !

– مررت بها منذ بضعة أعوام . وكان هذا المنزل ملكا لرجل اسمه السيد "**كابل**" .

– أوه . نعم . "**ديريك كابل**" المسكين . أكنت تعرفه ؟

– نعم ، كنت أعرفه

وتغير موقف "**إيفشام**" من الرجل الغريب في الحال . فبعد أن كان متحفظا معه ، كعادة الإنجليز ، إذا به يلقي التحفظ جانبا ، بعد أن عرف أن هذا الغريب كان صديقا لصديقه الراحل "**ديريك كابل**" ، ومن ثم قال :

– هذا عجيب . لقد كنا نتحدث عنه الآن ! وقد كنت في هذا البيت عندما قتل نفسه وكذلك كان "**ريتشارد كونوي**" . ورغم أني لا أؤمن بالأشباح ، فإني أتوقع بين لحظة وأخرى أن أرى شبحه يقتحم علينا هذه القاعة .

– الواقع أن ذلك الحادث كان مفاجئا ، ولا تفسير له على الإطلاق .

فهتف "**ريتشارد كونوي**" في حماس :

– إنه سر غامض عجيب . فقد كان "**ديريك كابل**" في أوج الحياة ، سعيدا ، لا يشغله هم من هموم الحياة . وكان قد دعا خمسة أو ستة من الأصدقاء إلى ضيافته، وكان في أثناء وجبة العشاء في أحسن حالاته النفسية والمعنوية ، لا يكاد يكف عن الخوض في الحديث عن مشروعاته المستقبلة . لكن ما كاد ينتهي العشاء حتى صعد فورا إلى غرفته وتناول مسدسه وقتل به نفسه . لماذا ؟ لا أحد يعرف ، ولن يستطيع أحد أن يعرف أبدا . فقال السيد "**كوين**" باسماً :

– ألا ترى أن الإنسان لا يستطيع أن يتأكد من هذه الحقيقة يا سيد "**ريتشارد**" ؟

– ماذا تعني ؟

– ليس من الضروري أن يكون اللغز مستعصيا على الحل لأن أحدا لم يستطع أن يحله !

– أوه . إذا لم يستطع أحد أن يحل هذا اللغز في حينه ، فهل يعقل أن يتمكن أحد من حله بعد عشر سنوات من وقوع هذا الحادث ؟

وهز السيد "**كوين**" رأسه برفق ، وقال :

– إنني لا أتفق معك في هذا . فإن مرور الزمن في كثير من الأحيان يجعل المؤرخ أقدر على فهم الأحداث وإدراك أسبابها ومسبباتها . والمهم هو أن ننظر إلى المشكلة نظرة تحيط بكل جوانبها ، و . .

وهنا صاح "**بورتال**" قائلاً :

– إنك على حق يا سيد "**كوين**" ! إن الزمن لا يضيع معالم المشكلة ، وإنما يجعل الإنسان ينظر إليها من زاوية مختلفة ، أو جديدة .

وابتسم "**إيفشام**" ، ثم قال :

– هل تعني يا سيد "**كوين**" أننا ، مثلا ، لو عقدنا من أنفسنا لجنة تحقيق الليلة ، وتناولنا ، بالبحث ، الظروف والملابسات التي أحاطت بمقتل "**ديريك كابل**" ، فهل تعتقد أننا قد نعرف الحقيقة كما لو كنا قد بحثنا الأمر عند وقوع الحادث ؟

– بل الاحتمال الآن أقوى يا سيد "**إيفشام**" ؛ لأن النزعات الشخصية لن يكون لها وجود ، ولأننا سننظر إلى الحقائق على أنها حقائق فقط بدون أن ننحرف بأفكارنا ومشاعرنا ونزعاتنا الخاصة .

ولما لاح الشك على وجه السيد "**إيفشام**" ، استطرد السيد "**كوين**" قائلاً :

– وعلى الإنسان في هذه الحالة أن يبحث عن النقطة التي يبدأ منها . ونقطة البدء تقوم عادة على نظرية ما . ولا شك أن لكل منكم رأيه أو نظريته الخاصة في هذا الحادث . فما رأيك أنت ، مثلا يا سيد "**ريتشارد**" ؟

فقطب "**ريتشارد كونوي**" ما بين حاجبيه مفكرا ، ثم قال :

– آه ! نعم بالتأكيد ، لقد ظننا بطبيعة الحال أن في الأمر امرأة ، أو أزمة مالية . والثابت أن حالة "**كابل**" المالية كانت ممتازة . إذن فماذا يمكن أن يكون السبب غير المرأة ؟

وأجفل السيد "**ساترويت**" قليلا في تلك اللحظة ، وكان قد انحنى إلى الأمام ليدلي بملاحظة بسيطة ، ولكنه فوجئ حين لمح جسم امرأة منكمشة على نفسها في ركن الشرفة العليا بحيث لم يكن أحد يراها إلا من حيث يجلس هو وكان وضعها ينم بوضوح على أنها كانت ترهف أذنيها لتسترق السمع إلى كل ما يقال .

وعرفها بسهولة عن طريق ثوبها .. إنها اليانور "**بورتال**" .

وفجأة بدا كل شيء واضحا أمامه . فإن وصول السيد "**كوين**" في تلك اللحظة لم يكن مجرد مصادفة ، وإنما أقرب ما يكون إلى ظهور الممثل على المسرح عندما

يأتي دوره . وإن هذه القاعة ، في تلك الليلة ، لتبدو في نظر السيد "**ساترويت**" كمسرح تجرى عليه إحدى مسرحيات الحياة العنيفة ، وذلك رغم أن الممثل الأول فيها ، رجل مات منتحرا منذ عشر سنوات . نعم . إن "**ساترويت**" واثق تماما بأن لـ"**ديريك كابل**" دورا رئيسيا في أحداث هذه المسرحية التي تجري أمام عينيه .

ومرة أخرى ازدادت الحقائق وضوحا أمام عينيه فجأة . إن هذا كله من صنع السيد "**كوين**" . إنه هو الذي أعد خشبة المسرح ، وهو الذي يوزع الأدوار على الممثلين ، ويعيش في قلب المسرحية ، يشد خيوطها غير المنظورة، ويوجه الممثلين حسبما يريد ، ويعرف كل شيء حتى تلك المرأة المنكمشة على نفسها في الشرفة تسترق السمع .

ورأى السيد "**كوين**" أن يستطرد في تحريك الممثلين على مسرحه بقوله :

– نعم . إن في الأمر امرأة بالتأكيد ، ولاشك أنكم تحدثتم في أثناء العشاء عن المرأة ، أو عن امرأة معينة !

فهتف "**إيفشام**" قائلا :

– عجبا ! بالتأكيد بالتأكيد . لقد أعلن لنا في أثناء العشاء عن أنه يعتزم خطبة فتاة ، وهذا ما جعل انتحاره يزداد غموضا ، بل جنونا .. وكان سعيدا جداً وهو يلمح لنا عن الخطيبة الحسناء ، ويقول إن الخطبة سوف تُعلَن رسميا بعد فترة معينة من الوقت لأسباب خاصة .

وقال "**ريتشارد كونوي**" :

– قد عرفنا بداهة ، من هي هذه الخطيبة المنتظرة ، إنها كانت "**مارجوري ويلك**" ، فتاة لطيفة حسناء فعلا .

وهنا التفت السيد "**كوين**" إلى "**إيفشام**" ، وقال متسائلا :

– أهذا هو رأيك يا سيد "**إيفشام**" ؟

– إنني لا أدري على وجه اليقين . لقد أعلن لنا أنه خطب فتاة جميلة ، وأنه لأسباب خاصة لن يعلن الخطبة رسميا إلا بعد فترة معينة ، وأنه لا يستطيع أن يذكر لنا اسم الخطيبة إلا بعد موافقتها . ولكن المهم أنه وصف نفسه بأنه رجل

محظوظ جداً ، وإنه يريد أن يجعلنا ، كصديقين له ، ندرك أنه سيكون في العام التالي رجلا من أسعد الناس في حياته الزوجية ، وبطبيعة الحال افترضنا أن الخطيبة هي "**مارجوري**" . فقد كانت علاقته بها وطيدة .

وعندئذ قال "**ريتشارد كونوي**" مترددا :

– ولكن العجيب في الأمر ، أنه ، إذا كانت الخطيبة هي "**مارجوري ويلك**" حقًّا، فلماذا كان يُخفي اسمها عنا ؟ لقد بدا لي عندئذ أن خطيبته سيدة متزوجة ، ومات زوجها حديثا ، أو طلقت منه .

فقال "**إيفشام**" :

– هذا أقرب إلى المنطق الصحيح . وما دام الأمر هكذا ، فمن الطبيعي أن يتكتم "**ديريك كابل**" اسم الخطيبة ولا يعلن الخطبة رسميا إلا في الوقت المناسب . وإذا أنتم عدتم بالذاكرة إلى ذلك العهد لتبينتم أنه لم يكن يلتقي بـ"**مارجوري**" كثيرا . وإني لأتذكر الآن أن العلاقة بينهما قد فترت كثيرا قبل وفاته بعام تقريبا .

فقال السيد "**كوين**" :

– هذا عجيب !

– نعم . لقد بدا كأنما دخلت في حياته امرأة أخرى فقال "**ريتشارد كونوي**" متأملا :

– امرأة أخرى !

وهتف "**إيفشام**" :

– بحق السماء . لقد كان "**ديريك**" في تلك الليلة سعيدا إلى حد النشوة والترنح من فرط السعادة . كان يبدو كمن شرب كأس الهناء المقدس ، وفوق هذا كان يبدو أيضا كالذي يتحدى الحياة والقدر .

ورفع السيد "**ساترويت**" عينيه إلى أعلى . آه نعم . إن اليانور "**بورتال**" لاتزال مكومة على نفسها تسترق السمع وكأنها ، في سكونها التام ، جثة هامدة .

وقال "**ريتشارد كونوي**" :

– هذا صحيح تماما . لقد كانت عواطف "**ديريك**" مهتاجة بالسعادة ، ويمكن القول إنه كان كالمقامر الذي لعب بكل ثروته ثم ربح رغم الاحتمال الضئيل في الربح .

وهنا قال "**بورتال**" :

– أو لعله كان يستمد شجاعته مما عقد العزم عليه !

فقال "**إيفشام**" بعنف :

– لا ، لا ليس الأمر كذلك ، ويمكنني أن أقسم أن شيئا من هذا لم يخطر بباله . إن "**كونوي**" أقرب إلى الصواب .

لقد كان "**ديريك**" يبدو كالمقامر الذي ربح بضربة حظ أكثر مما كان يتوقع ، ولهذا فهو لا يكاد يصدق أنه ربح فعلا .

وعندئذ هز "**كونوي**" كتفيه ، وقال :

– ومع ذلك فقد انتحر بمسدسه بعد عشر دقائق . وخيم الصمت على الجميع، وفجأة ضرب "**إيفشام**" المائدة بقبضة يده ، وقال :

– لابد أن شيئا ما قد حدث في هذه الدقائق العشر .لابد .. ولكن ما الذي حدث ؟ فلنحاول أن نفكر فيما حدث بإمعان . لقد كنا جميعا نتحدث ، وفي منتصف الحديث ، نهض "**كابل**" وصعد إلى غرفته .

فقال السيد "**كوين**" :

– لماذا ؟ !

فقطب "**إيفشام**" جبينه مفكرا ، ثم قال :

– لم نهتم في ذلك الحين بالسبب ، أوه .. إنه ساعي البريد . ألا تذكر يا "**كونوي**" كيف انفعلنا عند سماعنا صلصلة الجرس ، وكنا في ذلك الحين محبوسين في البيت بسبب انهمار الثلوج وتراكمها حوله لمدة ثلاثة أيام ؟ ! لقد حدثت في تلك الأيام عاصفة ثلجية لم يحدث مثلها منذ أعوام وأعوام .

وكانت الطرق كلها مغلقة بسبب تراكم الثلوج ، فلا رسائل تصلنا ، ولا صحف

أو مجلات . ولما صلّصل الجرس ، ذهب "**ديريك كابل**" ليفتح الباب ، وما لبث أن عاد بكومة من الرسائل والصحف . وفتح إحدى الصحف ليرى هل وقعت أحداث مثيرة ، ثم صعد بالرسائل إلى غرفته ، وبعد ثلاث دقائق سمعنا الطلق الناري ! شيء لا يمكن تفسيره أبدا !

فقال "**بورتال**" :

– بل من الممكن تفسيره . فلعل "**كابل**" قرأ في إحدى الرسائل نبأ لم يكن يتوقعه .

فقال "**كونوي**" :

– أتظن أننا لم نفكر في هذا الاحتمال ؟ لقد كان هذا أول سؤال ألقاه المحقق علينا . ولكن ثبت أنه لم يفتح رسالة واحدة ، فقد ظلت حزمة الرسائل بكاملها على مائدة الخزينة دون أن يفتح منها واحدة .

فقال "**بورتال**" مترددا :

– هل أنتم واثقون تماما بأنه لم يقرأ رسالة منها ثم دمرها أو تخلص منها بعد ذلك ؟

– هذا احتمال لم نغفل عنه أيضا ، ولكننا لم نر في غرفته أو في المدفأة أو في أي مكان بالبيت بقايا رسالة ممزقة أو محترقة .

– هذا عجيب . عجيب جداً .

وقال "**إيفشام**" بصوت خفيض :

– إن الحادث في جملته كان رهيبا ، مفاجئا ، لا معنى له . ولشد ما كانت صدمتنا حين صعدت أنا و "**كونوي**" إليه ، بعد أن سمعنا الطلقة النارية ، ووجدناه جثة هامدة .

فقال السيد "**كوين**" :

– ولم يكن في وسع أحدكما أن يفعل شيئا غير الاتصال تليفونيا بمركز البوليس .

– لم يكن بالمنزل تليفون في ذلك الحين . ولكن حدث لحسن الحظ أن كونستابل

المنطقة كان في المطبخ عندئذ . أتذكر يا "**كونوي**" ؟ لقد ضل أحد كلاب "**ديريك كابل**" طريقه في الثلوج في اليوم السابق – إنه الكلب العجوز "روفر" ، وعثر عليه أحد الرجال ونصفه مدفون في الجليد ، فحمله إلى مركز البوليس حيث تعرّفه الكونستابل وعرف أنه أحد كلاب السيد "**كابل**" الأثيرة لديه ، فحمله في اليوم التالي إلى البيت . وكان وصول الكونستابل بعد صعود "**كابل**" إلى غرفته بدقيقتين تقريبا ، لأنني أذكر أننا سمعنا الطلق الناري فور دخوله إلى المطبخ ليصنع لنفسه قدح شاي .

يالله ! لقد أنقذ وجود هذا الكونستابل موقفنا من الحرج الشديد .

وقال "**كونوي**" مرتدا بذاكرته إلى تلك الأيام :

– يا للهول ! ما أفظع تلك العاصفة الثلجية التي كانت تهب يومذاك ! أعتقد أننا كنا في أوائل شهر كانون الثاني (يناير) .

– لا .. كنا في شهر شباط (فبراير)؛ لأننا قمنا برحلة إلى خارج البلاد بعد الحادث بوقت قصير .

– إنني واثق بأن الوقت كان في شهر كانون الثاني (يناير)؛ لأن العجوز "نيد" حارس الصيد في مزرعتي – أتذكر "نيد" ؟ أصيب في ساقه ، وكان ذلك في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) ، بعد الحادث بأيام عديدة .

– إذن لابد أن ما حدث كان في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) . حقًّا ما أصعب أن يذكر الإنسان التاريخ الصحيح لمثل هذه الأحداث بعد مرور سنوات عدة .

وهنا قال السيد "**كوين**" :

– إن هذا من أصعب الأشياء على الذاكرة فعلا . ولكن الإنسان قد يتذكر بدقة حادثا معينا في حياته إذا كان حدوثه في أثناء وقوع حادث عام مثير ، مثل مقتل ملك أو نظر قضية كبيرة .

فصاح "**كونوي**" :

– نعم .. نعم . ما أعجب هذا . لقد وقع الحادث قبل قضية "**أبلتون**" مباشرة.

– تعني بعدها مباشرة ؟

– لا لا . ألا تذكر ؟ لقد كان "**ديريك كابل**" يعرف آل "**أبلتون**" . كان قد أمضى الربيع الأسبق مع العجوز "**أبلتون**" ، أي قبل موته بأسبوع . والواقع أن ذلك العجوز "**أبلتون**" كان رجلا بغيضًا ، ولا شك أن زوجته الشابة الحسناء عانت الكثير في حياتها معه . ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الريبة يومذاك في أنها هي التي دست السم له .

فقال "**إيفشام**" :

– آه ! نعم بحق السماء . إنني أتذكر الآن أني قرأت فقرة في الصحيفة التي أحضرها ساعي البريد مع رسائل "**ديريك كابل**" جاء فيها أن أمرا صدر باستخراج جثة العجوز "**أبلتون**" لتشريحها ومعرفة سبب الوفاة . لقد قرأت هذا النبأ بغير اهتمام؛ لأني كنت أفكر وقتئذ في جثة صديقي "**ديريك**" الهامدة، الممدة في غرفته بالطابق الأعلى .

فقال السيد "**كوين**" :

– هذه ظاهرة فكرية عجيبة رغم شيوعها ، فإن التفكير في ساعة الأزمات كثيرا ما يتركز في أشياء تافهة تظل عالقة بذهن الإنسان سنوات عديدة . ويبدو أنها تنقش في الذهن بسبب حالة الانفعال الشديد الذي يعانيه الإنسان ساعة الأزمة .

فقال "**كونوي**" :

– صدقت يا سيد "**كوين**" فقد أحسست فجأة ، وأنت تتحدث الآن ، أني انتقلت إلى غرفة "**ديريك كابل**" ، حيث كان ملقى على الأرض جثة هامدة ، وقد رأيت بوضوح الشجرة الكبيرة القائمة أمام النافذة ، وظلالها على الثلوج من تحتها نعم ، كل شيء يتراءى لي الآن خارج النافذة واضحا في ضوء القمر.. الشجرة ، والظلال ، والأرض المكسوة بالجليد ، عجبا .. إنني أكاد أرى كل شيء أمامي الآن.. إنني أستطيع أن أرسمها بدقة . ومع ذلك فلم أكن أدري حينذاك أني تعمدت التظر إلى هذا كله .

فسأل السيد "**كوين**" :

– كانت غرفته هي القائمة فوق الشرفة السفلى الكبيرة ، أليس كذلك ؟

– بلى . وكانت الشجرة – شجرة زان كبيرة – قائمة في منعطف الممر المؤدي إلى البيت .

وأومأ السيد "**كوين**" برأسه . وازداد انفعال السيد "**ساترويت**" وهو يدرك أن كل كلمة وكل نبرة في صوت السيد "**كوين**" تحمل في طياتها معنى معينا . لقد كان يهدف إلى شيء ما . ولكن السيد "**ساترويت**" لم يكن يعرف على وجه اليقين، ما هو ذلك الشيء .

وبعد لحظة ساد فيها الصمت ، عاد "**إيفشام**" إلى الحديث عن الموضوع قائلا :

– إنني أتذكر قضية "**أبلتون**" الآن . ما أشد الضجة الاجتماعية التي أثارتها يومذاك ، ولكن السيدة "**أبلتون**" الحسناء نجت بجلدها من حبل المشنقة ، أليس كذلك ؟ لقد كانت جميلة ، شقراء ذهبية الشعر إلى حد يجبر الإنسان على التطلع إلى مفاتنها .

وخُيّل إلى السيد "**ساترويت**" أنه رأى المرأة التي تسترق السمع في الشرفة العليا تزداد انكماشا على نفسها ، ولكنه فوجئ بصوت كأس يتحطم على الأرض ، فالتفت ليرى "**أليكس بورتال**" في اضطراب واعتذار :

– إنني آسف . لقد وقعت الكأس من يدي ، ولا أدري ماذا دهاني .

فقال "**إيفشام**" ليهدئ من روعه :

– لا عليك يا صديقي العزيز . هذا عجيب ، إن تحطم هذه الكأس يذكرني بشيء ما في قضية "**أبلتون**" . آه .. لقد حطمت السيدة "**أبلتون**" قنينة حفظ الشراب التي تعود زوجها أن يشرب منها كأسا كل ليلة .

– نعم . نعم لقد شاهدها أحد الخدم تأخذ القنينة – بعد وفاة زوجها بيوم – وتحطمها عمدا . وقد أثار تصرفها هذا تعليقات الخدم بطبيعة الحال . فقد كانوا جميعا يعلمون أنها شقية في حياتها مع زوجها . وازدادت الأقاويل ، وانتشرت الشائعات ، وأخيرا ، بعد شهر من الوفاة ، قدم بعض أقارب المتوفى طلبا لاستخراج

الجثة وتشريحها . وكانت المفاجأة الكبرى أن التشريح أثبت وفاة الزوج العجوز بسم "الزرنيخ" . أليس كذلك ؟

– لا . . بل بـ"الأستركنين" ، على ما أذكر . ولكن ليس هذا مهما ، وإنما المهم أنه مات مسمماً ، وأن الاتهام تركز في شخص واحد ، هو زوجته الشابة الحسناء . وقدمت إلى المحاكمة ، ولكن أطلق سراحها لعدم كفاية الأدلة لا لثبوت براءتها . والواقع أن الحظ كان معها ، فأنا لا أشك في أنها هي الفاعلة . ولا أدري ماذا حدث لها بعد ذلك .

– رحلت إلى "**كندا**" على ما أظن ، أو إلى "**أستراليا**" فقد كان لها عم في مكان ما وراء البحار عرض عليها الالتجاء إليه . وأخيرا فعلت .

ولاحظ السيد "**ساترويت**" كيف كان السيد "**بورتال**" يقبض على كأسه بعنف حتى لتوشك أن تتحطم بين أصابعه . أما "**إيفشام**" فقد قال وهو يملأ كأسه :

– حسنًا . . إننا لم نعرف بعد لماذا انتحر المسكين "**ديريك كابل**" . إن التحقيق في سبب انتحاره لم يسفر عن شيء . أليس كذلك يا سيد "**كوين**" ؟

وهنا أرسل السيد "**كوين**" ضحكة عجيبة ساخرة أثارت دهشة الجميع ، ثم قال :

– معذرة أيها السادة ، إنكم لا تزالون تعيشون في الماضي بنفس مشاعركم ونظراتكم ونزعاتكم بالنسبة إلى حادث المسكين "**ديريك كابل**" . أما أنا ، الغريب، فإني أنظر إلى الحقائق المتسلسلة ، نظرة خالية من العواطف الشخصية .

فقال "**إيفشام**" :

– ماذا تعني يا سيد "**كوين**" ؟ !

– هلم نرجع بأفكارنا إلى سنوات عشر لنرى ماذا حدث من وجهة النظر المحايدة .

ثم نهض بقامته الطويلة ، ووقف وظهره إلى المدفأة ، وقال بصوت هادىء كأستاذ محاضر :

– كنتم تتناولون العشاء ، وأعلن "**ديريك**" عن خطبته ، وظننتم أنه يقصد

"**مارجوري ويلك**" ، ولكنكم الآن غير واثقين بأنها هي الخطيبة التي كان يعنيها ، وكان هو في حالة ابتهاج شديد ، وتسلم البريد الذي تأخر ثلاثة أيام بسبب العاصفة الجليدية . وقد ثبت أنه لم يفتح خطابا ، ولكنكم ذكرتم أنه فتح إحدى الصحف ليقرأ آخر الأنباء . وقد مضى على تلك المشاهدات عشر سنوات ، ولعله قرأ يومذاك عن أزمة سياسية ، أو زلزال في مكان بعيد ، فإننا لا ندري ، ولكن النبأ الذي ورد في الصحيفة يقينا ، هو صدور الأمر الرسمي باستخراج جثة السيد "**أبلتون**" لتشريحها ومعرفة سبب الوفاة .

– ماذا ؟ !

واستطرد السيد "**كوين**" في حديثه قائلا :

– وصعد "**ديريك كابل**" بعد هذا مباشرة إلى غرفته ، وهناك رأى شيئا من النافذة، فقد ذكر لنا السيد "**ريتشارد كونوي**" الآن أن الستائر لم تكن مسدلة ، وأنه رأى عند صعوده إلى الغرفة بعد الحادث ، الشجرة والممر وضوء القمر على الجليد ، فماذا رأى "**ديريك**" في تلك اللحظة مما جعله يلجأ إلى الانتحار مرغما ؟

– ماذا تعني ؟ ماذا عساه قد رأى ؟

– أعتقد أنه رأى كونستابلا . . الكونستابل الذي جاء يحمل الكلب الضال ، ولكن "**ديريك كابل**" لم يكن يعرف هذه الحقيقة ، وإنما ظن أن الكونستابل أتى لغرض آخر .

وصمت السيد "**كوين**" برهة حتى يجعل معاني كلماته تترسب في نفوس المستمعين ، وفجأة هتف "**إيفشام**" قائلا :

– يا إلهي ! إنك لا تعني هذا ؟ لا تعني أنه قاتل العجوز "**أبلتون**" ! لقد مات الرجل بعد انصراف "**ديريك**" من ضيافته بأسبوع . وكان العجوز يقيم مع زوجته فقط عندما حدثت الوفاة .

– ولكنه كان هناك قبل الوفاة بأسبوع ، وكان في مقدوره أن يضع "الأستركنين" في قنينة حفظ الشراب ، و"الأستركنين" ، كما نعرف جميعا ، لا يذوب بسهولة في الكحول ، ومن ثم يترسب في قاع القنينة ، وتحدث الوفاة به عندما يشرب

الإنسان الكأس الأخيرة أو قبل الأخيرة . فإذا كان من عادته أن يشرب في كل يوم كأسا واحدة ، فإن قنينة حفظ الشراب لا تفرغ إلا بعد عشرة أيام أو أكثر عادة .

وهنا وثب السيد "**بورتال**" وقال بعنف :

– ولكن لماذا ؟ لماذا حطمت هي القنينة عمدا ؟ لماذا ؟ أخبروني لماذا ؟

ولأول مرة اتجه السيد "**كوين**" بالحديث إلى السيد "**ساترويت**" ، وقال له :

– إنك واسع الخبرة بالحياة يا سيد "**ساترويت**" ولعلك تستطيع أن تخبرنا لماذا ؟

وتهدج صوت السيد "**ساترويت**" وهو يدرك أن عليه ، الآن ، أن يلعب دوره على مسرحية الحياة هذه بعد أن ظل في مقاعد المتفرجين ، وقال في تواضع :

– أعتقد أنها كانت تحب "**ديريك كابل**" ، وكانت في الوقت نفسه سيدة شريفة مخلصة لزوجها ، فطلبت من "**ديريك**" أن يرحل من البيت قبل أن تتمادى في حبه . ولما مات زوجها ، خامرها الشك في "**ديريك**" وظنت أنه هو الذي وضع سم "الأستركنين" في قنينة حفظ الشراب ، فبادرت إلى تحطيمها حتى تنقذه من المحاكمة . وأعتقد أنه أقنعها فيما بعد ، بأنه لا أساس لشكوكها ، فقبلت الزواج به، ولكنها طلبت منه أن يمهلها فترة من الوقت . فإن للنساء عادة غرائز حادة ، مرهفة .

وفرغ السيد "**ساترويت**" من أداء دوره . وسرت في الجو همهمة زفرة طويلة جعلت "**إيفشام**" يقول دهشاً :

– يا إلهي ! ما هذا ؟

وكان في استطاعة "**ساترويت**" أن يقول له إنها اليانور "**بورتال**" المختبئة في الشرفة العليا . ولكنه آثر ألا يفسد ذلك الجو المفعم بالإثارة والتشويق .

وابتسم السيد "**كوين**" قائلا :

– أعتقد أن السائق قد أصلح الخلل في سيارتي الآن . وإني أشكر لك حسن ضيافتك لي يا سيد "**إيفشام**" ، ولعلي أديت خدمة لصديقي .

وبينما كان الجميع يحدقون النظر إليه في دهشة استطرد يقول :

– إن هذا الجانب من الموضوع لم يخطر ببالكم ، لقد أحب تلك السيدة الشابة

الحسناء السيدة "**أبلتون**" . أحبها إلى حد الاندفاع في ارتكاب جريمة قتل . ولما أدرك أن الأمر قد انكشف . قتل نفسه ، تاركا الحبيبة تواجه الموقف العصيب بمفردها .

فقال "**إيفشام**" :

– ولكن التهمة لم تثبت عليها .

– نعم . وذلك لضعف الأدلة . ولعلها حتى الآن لا تزال تواجه هذا الموقف العصيب .

وتهالك "**أليكس بورتال**" في مقعده ، ودفن وجهه بين يديه واستدار السيد "**كوين**" إلى "**ساترويت**" ، وقال :

– طاب يومك يا سيد "**ساترويت**" ، لا شك أنك مهتم بهذه المسرحية الواقعية، أليس كذلك ؟

وأومأ السيد "**ساترويت**" برأسه دهشاً .

وبعد أن حيّا "**كوين**" الجميع ، استدار ومضى فجأة ، كما أقبل عليهم فجأة.

وصعد السيد "**ساترويت**" إلى غرفته بالطابق الأعلى ، وبينما هو يسدل الستائر على النافذة ، لمح السيد "**كوين**" وهو يمضي في الممر إلى سيارته . وفجأة فتح باب جانبي من المنزل ، وخرجت منه امرأة تجري ، فلما لحقت بالسيد "**كوين**" ، تبادلت معه كلمات قليلة ، ثم عادت إلى المنزل . وبينما هي تقترب من نافذة السيد "**ساترويت**" ، فوجئ بالتغيير الهائل الذي طرأ على وجهها ، فبعد أن كان شاحبا جامدا ، إذا به وجه جديد .. وجه مفعم بالحيوية وحب الحياة ، وجه امرأة سعيدة كأنها في حلم بهيج .

– اليانور ؟

وانضم "**أليكس بورتال**" ، زوجها ، إليها وهو يردف قائلا :

– اليانور ؟ اغفري لي ، واصفحي عني . لقد كنت صادقة في حديثك إليَّ عن هذه المأساة ، ولكنني لم أستطع تصديقك .. هل يمكن أن تغفري لي ؟

ولما كان السيد "**ساترويت**" رجلا مهذبا لا يحب استراق السمع ، رغم اهتمامه بأسرار الناس ، فقد رأى أن يغلق النافذة . ولكنه أغلقها ببطء . وقد استطاع أن يسمع – قبل أن يتم إغلاقها – اليانور ، وهي تقول :

– أنا أعرف .. أنا أعرف . لقد كنت تعيش معي يا "**أليكس**" في جحيم . وقد عانيت هذا الشعور بنفسي ذات مرة . فقد أحببت "**ديريك كابل**" ، ولما شككت في أنه قاتل زوجي السابق "**أبلتون**" ، عشت في جحيم من الشك والحب .

ولا شك أن هذا شعورك معي وأنت تظن أنني القاتلة . لقد ظل الحب والشك في نفسك يتصارعان طوال هذه السنين ، وكنت أنا أعيش معك في جحيم؛ لأني كنت أدرك أنك رغم حبك لي ، تخشاني ، وتخشى أن أقتلك يوما ، كما ظننت أنني قتلت زوجي السابق . وأخيرا جاء هذا الرجل الغريب ، الذي ظهر واختفى فجأة كالشبح ، فوضع الأمور في نصابها ، وأنقذنا ، أنت وأنا، مما نعانيه، بل وأنقذني أنا من الموت . نعم . كنت أنوي الليلة ، بعد أن عِيل صبري، أن أنتحر !

"**أليكس**" ، "**أليكس**" !

- 2 -

الطائر الجريح

كان السيد "**ساترويت**" جالسا في غرفة المكتبة الكبيرة بقصر أحد أصدقائه في الريف الإنجليزي . وكان بعض المدعوين الشبان في القصر يعقدون ، على سبيل التسلية ، جلسة للتنويم المغناطيسي ، وكان أحدهم مُنوَّما يجيب عن الأسئلة ، ويبلِّغ الرسائل الروحية إلى أصحابها ، وكان السيد "**ساترويت**" يرقب ما يجري في غير اهتمام شديد ، إذ كان يفكر في العودة إلى "**لندن**" لقضاء فصل الشتاء ، ولذلك اعتذر عن قبول دعوة "**مادج كيلي**" حين اتصلت به تليفونيا منذ ساعة ،

وطلبت منه أن ينضم إلى مدعويها في قصر والدها ببلدة "**لايدل**" .

وفجأة تنبه من أفكاره على صوت الوسيط المُنوِّم يقول :

– هذه رسالة إلى السيد "**ساترويت**" . هل السيد "**ساترويت**" موجود ؟

– نعم .

– السيد "**كوين**" . نعم السيد "**كوين**" يريد منه أن يذهب إلى "**لايدل**" .. إلى "**مادج كيلي**" . انتهت الرسالة .

ونهض "**ساترويت**" دهشا مذهولا ، وانصرف من الغرفة ، ومضى فورا إلى التليفون حيث اتصل بـ"**مادج كيلي**" ، فلما سمع صوتها قال :

– اسمعي يا عزيزتي "**مادج**" . لقد غيّرت رأيي وقررت أن أقبل دعوتك الرقيقة . نعم . نعم . سوف أكون عندك في وقت العشاء .

وأعاد المسماع إلى مكانه وهو مضطرم الوجه بالإثارة والانفعال أن "**كوين**"– هذا الرجل الخفي العجيب "**هارلي كوين**" – قد اختار هذه المرة الوسيط المغناطيسي ليبلغه هذه الرسالة . وما دام كذلك فلا بد أن أحداثا خطيرة سوف تقع ، أو توشك أن تقع ، في قصر "**مادج كيلي**" ببلدة "**لايدل**" .

وأدرك أنه أيًّا كانت هذه الأحداث ، فلا شك أن له دورا إيجابيا فيها ، وإلا لما طلب منه ، هذا الشبح الآدمي الخفي ، أن يقبل الدعوة ، ويذهب فورا .

وكان قصر "**لايدل**" كبيرا رحيب القاعات والأبهاء ، يمتلكه السيد "**دافيد كيلي**" ، وهو أحد الرجال الهادئين ذوي الشخصية الضعيفة ، وهو لا يعدو أن يكون جزءا من أثاثات البيت . ولكن شخصيته الضعيفة لا علاقة لها بعقله القوي .

فقد وضع كتابا في الرياضيات العليا لا يستطيع أن يفهمه تسعون في المائة من القراء إلا أنه – على عكس الرجال النوابغ – لايدع عقله القوي يشع حوله بالنور والجاذبية . ولهذا كثيرا ما كان أهالي المنطقة يتندرون عليه بقولهم: إنه "الرجل الخفي" . فالخدم يتجاوزونه وهم يحملون الطعام إلى الضيوف ، والضيوف ينسون أن يلقوا عليه التحية عند وصولهم .

ولكن ابنته "**مادج**" كانت تختلف عنه كثيرا ، فهي شابة في نحو الثلاثين من عمرها ، طويلة القامة ، رائعة المظهر ، موفورة الحيوية والنشاط ، سليمة الجسم ، جميلة إلى حد كبير . وكانت هي التي استقبلت السيد "**ساترويت**" عند وصوله بقولها :

– لشد ما يسرني حضورك ، بعد أن اعتذرت أول مرة !

– أوه ، "**مادج**" ، يا عزيزتي ، إنك تبدين في حالة طيبة .

– نعم . نعم . إنني دائما في أحسن حال .

– أعرف هذا . ولكني أرى أن هناك ما يجعل وجهك يشع بالسعادة والابتهاج، فهل حدث شيء يا عزيزتي ؟ أعني شيئا خاصا ؟

فاضطرم وجهها خجلا وضحكت قائلة :

– دائما تصدق في استنتاجاتك يا سيد "**ساترويت**" !

ثم أخذت يده بين يديها وأردفت قائلة :

– نعم يا سيد "**ساترويت**" ، يا عزيزي ، لقد حدث شيء مهم ، ووصل فارس الأحلام .

فضحك "**ساترويت**" وقال :

– إذن يجب أن أسألك من يكون هذا الفارس السعيد، كل ما أرجوه أن يكون جديرا بالشرف الذي تسبغينه عليه .

– أوه ! تأكد أننا سنسعد معا ، فإننا نحب نفس الأشياء ، وهذا أمر مهم جداً ، وآراؤنا متفقة في جوانب كبيرة . وكل منا يعرف الكثير عن الآخر ، والواقع أن هذا "الحدث" كان يختمر بيننا منذ أمد بعيد . ولا شك أن هذا يفعم النفس بالأمن والاطمئنان . اليس كذلك ؟

– بلى بالتأكيد . ولكن الإنسان عادة لا يستطيع أن يعرف الحقيقة الكاملة عن أي شيء آخر . ولا شك أن هذا جزء من جمال الحياة .

فضحكت "**مادج**" وقالت وهي تمضي به إلى الغرفة المخصصة له :

– أوه ! لسوف أستمتع بالمغامرة على كل حال .

وتأخر السيد "**ساترويت**" عن موعد العشاء قليلا؛ لأنه لم يصحب معه تابعه الخاص ، وكان يجب أن يرتب حاجاته بنفسه . وبعناية خاصة . ومن ثم وجد جميع المدعوين حول مائدة العشاء حين وصل إليها ، وسمع "**مادج**" تقول بلا كلفة :

– أوه ! أسرع يا سيد "**ساترويت**" ، فإننا نكاد نموت جوعا . هلم نبدأ !

واستقبلته مع سيدة طويلة القامة ، قد وخط الشيب شعرها ، قوية الشخصية، رنانة الصوت ، واضحة النبرات .

– كيف حالك يا سيد "**ساترويت**" ؟

وجفل السيد "**ساترويت**" حين رأى السيد "**دافيد كيلي**" يحييه ، فقال معتذرا :

– معذرة يا سيد "**كيلي**" . فالواقع أني لم أرك .

– لا عليك ، فإن أحداً لا يراني عادة .

وأخذ الجميع يتبادلون الأحاديث والضحكات وهم يتناولون العشاء ، وكان هو يجلس بين "**مادج**" وبين فتاة سوداء الشعر ، قصيرة القامة ، عالية الضحكات ، قوية الإرادة كما يبدو من حديثها وصلابة ملامحها ، اسمها "**دوريس**" ، وكانت في جملتها من الطراز الذي لا يميل إليه السيد "**ساترويت**". وإلى جانب "**مادج**" من الناحية الأخرى جلس رجل في نحو الثلاثين من عمره، يبدو من الشبه الواضح بينه وبين السيدة ذات الشعر الأشيب أنه ابنها ، وإلى جانبه جلست فتاة جعلت السيد "**ساترويت**" يحبس أنفاسه من فرط الدهشة والعجب .

إنه لم يدر كيف يصفها ! إنها لم تكن الجمال مجسما ، وإنما كانت شيئا آخر، شيئا أكثر مرونة وأكثر غموضا من الجمال .

كانت تنصت إلى حديث السيد "**دافيد كيلي**" – والد "**مادج**" – وهي تميل برأسها جانبا . كانت موجودة ، ولم تكن موجودة في وقت واحد ، في رأي السيد "**ساترويت**" . كانت تبدو أنها أُرهقت كثيرا من الناحية المادية البشرية من جميع الجالسين حول المائدة البيضاوية . وكان في تكوين جسمها نسق جميل ، بل أكثر

من جميل ، وحين رفعت عينيها إلى ناحية السيد "**ساترويت**" ، والتقت بعينيه في نظرة دامت دقيقة ، وإذا هو يجد التعبير الملائم : فاتنة !! نعم . كانت موفورة السحر والفتنة . ولعل من يراها يحسبها إحدى هذه المخلوقات الرقيقة العذبة التي تحدثنا عنها الأساطير ، وكان مجرد وجودها يجعل الجميع يبدون أكثر واقعية ومادية .

ولكنها في نفس الوقت ، وبطريقة عجيبة غريبة ، كانت تثير في نفسه العطف والرثاء ، وكأنما كانت رقتها البالغة التي تجعلها لا تشبه البشر ، تعوقها عن الظهور بالمظهر الطبيعي ووجد السيد "**ساترويت**" نفسه يقول :

"ما أشبهها بطائر مهيض الجناح !" .

ولما اطمأن إلى هذا التعبير ، تنبه لنفسه ، وتمنى لو أن الفتاة "**دوريس**" الجالسة بجانبه لم تلحظ ذهوله ، ولكنه رآها مشغولة بالحديث إلى رجل بجانبها لم يلحظه السيد "**ساترويت**" من قبل . وأخيرا استدار هو إلى "**مادج**" وقال بصوت خافت :

– من هذه السيدة الجالسة بجوار والدك ؟ !

– السيدة "**جراهام**" ؟ أوه ! لا شك أنك تعني "**مابل**" . ألا تعرفها ؟ "**مابل آنيسلي**" ، إنها من أسرة "**جلاديسلي**" . واحدة من أسرة "**جلاديسلي**" المنحوسة الطالع !

ودهش لهذا التعبير ، ولكنه تذكر . فقد قتل شقيق في هذه الأسرة نفسه بالرصاص ، وغرقت أخت ، ومات ثالث في زلزال . إنها أسرة يطاردها النحس بشكل عجيب . ولاشك أن "**مابل**" هذه هي صغرى الإخوة والأخوات .

مرة أخرى أفاق من أفكاره حين أحس بيد "**مادج**" تضغط على يده تحت المائدة ، ثم تهمس له في خفوت وهي تومىء برأسها نحو اليسار :

– هذا هو !

أومأ السيد "**ساترويت**" برأسه سريعا في فهم وإدراك . إذن فهذا هو الشاب "**جراهام**" الذي وقع عليه اختيار "**مادج**" . حسنا ، إنه لم يكن في مقدورها أن تختار أفضل منه من ناحية المظهر . فقد كان وسيما ، لطيفا طبيعيا في أحاديثه ،

ولاشك أنه سيكون أنسب زوج لـ"**مادج**" .

ولما كانت "**مادج**" تتبع النظام القديم في آداب المائدة ، فقد تركت السيدات ينصرفن أولا من قاعة الطعام . ومن ثم اقترب السيد "**ساترويت**" من الشاب "**جراهام**" ، وراح يتحدث إليه ورغم أنه تأكد من صدق حدسه عنه ، إلا أنه لاحظ يد الشاب وهي ترتعد حينما كان يرفع الكأس إلى شفتيه ، كما لاحظ أنه شارد الذهن ، مشتت الفكر بعض الشيء .

وقال "**ساترويت**" لنفسه :

"إن هناك ما يشغل تفكيره ! وقد لا يكون بالأهمية التي يظنها ، وعلى كل حال ترى ماذا يشغل باله بهذه الصورة ؟"

وكان "**ساترويت**" قد اعتاد أن يتناول بعض أقراص الهضم عقب تناول الطعام ، ولما كان قد نسي علبة الأقراص في غرفته بالطابق الأعلى . فقد صعد إليها ، وفي أثناء هبوطه ومروره في الدهليز الطويل المؤدي إلى غرفة الجلوس ، تسمر مكانه في منتصف الدهليز أمام باب غرفة كانت تسمى "غرفة الشرفة" وكان الباب مفتوحا قليلاً ، وضوء القمر ينسكب في الغرفة من خلال نوافذها الشبكية ، ويرسم بخيوطه الفضية أشكالا هندسية عجيبة ، ورأى "**ساترويت**" على حافة النافذة سيدة جالسة ، مائلة الجسم قليلا ، تداعب بأناملها أوتار قيثارة فتصدر نغمات عذبة حالمة ، وصوتها الناعم الخافت يصاحب النغمات كأنه هديل الحمام . وكان ثوبها من الشيفون الفاخر الأزرق اللون ، كان مكششا ومقصصا حتى بدا كأنه ريش طائر .

ودخل الغرفة ، خطوة ، خطوة ، حتى إذا اقترب منها ورأى وجهها ، ورأته ولم تدهش ، ولم تجفل قال معتذرا :

– أرجو ألا أكون قد أزعجتك !

– أرجوك . . اجلس !

وجلس بجانبها على مقعد من خشب الزان المصقول البراق . وبعد أن ترنمت بصوت ناعم ، قالت :

– إن هذه الليلة مشحونة بالفتنة والسحر . ألا ترى هذا ؟

– نعم . إن فيها شيئا كثيرا من السحر !

وقالت شارحة الموقف :

– لقد طلبوا مني أن آتي بقيثارتي من غرفتي لأعزف لهم عليها ، وفيما أنا أمر على هذه الغرفة ، سحرني ضوء القمر ، وأحسست برغبة شديدة في الانفراد بنفسي ، في الظلام ، وفي ضوء القمر .

فنهض "**ساترويت**" معتذرا وقال :

– إذن فلا شك أني أفسدت هذا الجو .

– لا .. لا تذهب ، إنك زدته سحرا .

ولما جلس ، استطردت هي تقول :

– إن الهدوء العجيب يهيمن على هذه الليلة . وقد خرجت في غروب اليوم إلى الغابة ، والتقيت برجل ، طويل نحيل ، ملوح البشرة ، عجيب السمت ، كأنه مهرج "**هارلي كوين**" تحت ضوء الشمس الغاربة المتسلل من أوراق الشجر .

ومال "**ساترويت**" إلى الأمام وقال :

– آه !! ..

– وأردت أن أتحدث إليه ، وقد بدا لي كأنني أعرفه من قبل ولكنه اختفى بين الشجر .

– أظن أني أعرفه !

– أحقًّا ؟ إنه رجل عجيب ، أليس كذلك ؟

– بلى ..

وساد الصمت برهة ، وأراد "**ساترويت**" أن يقول شيئا ، فلم يستطع إلا أن يتمتم قائلا في ارتباك :

– إن الإنسان ، عندما يشعر بالتعاسة ، يحب أحيانا أن ينفرد بنفسه .

فقاطعته قائلة :

– نعم . هذا حق . ولكنني أعتقد أن الأصح هو أنني أردت الانفراد بنفسي لأني

أشعر بالسعادة .

– أتشعرين بالسعادة إذن ؟

– جدًّا ، جدًّا .

وكانت تتحدث بهدوء ، ومع ذلك فقد أدرك "**ساترويت**" أنها حين تتحدث عن السعادة ، فإنما تعني بحديثها شيئا آخر غير الذي تعنيه مثلا فتاة مثل "**مادج**" حين تتحدث عن السعادة . إن السعادة في رأى "**مابل آنيسلي**" لابد أن تكون نوعا من اللذة والنشوة والمتعة البالغة .

وقال في حذر :

– إنني لم أكن أعرف .

– نعم . نعم إنك لم تعرف بعد . فأنا لست سعيدة الآن ، ولكنني سأغدو بعد أيام قليلة أسعد إنسانة في الدنيا . سأكون كالرجل الذي عاش سنوات في غابة مظلمة رهيبة زاخرة بالمخاطر والمهالك ، وبعد أن كاد يموت يأسا . إذا به يجد نفسه خارج الغابة ، يطل على مدينة الأحلام التي طالما هفا إليها وتمنى بلوغها ، ولم يبق عليه إلا أن يخطو خطوة واحدة لتتحقق له كل أمانيه .

وقال "**ساترويت**" :

– إن كثيرا من الأشياء تبدو جميلة قبل أن نصل إليها وإن أقبح الأشياء في العالم قد تلوح جميلة ونحن ننظر إليها من بعيد ، ونتمنى الحصول عليها .

وتوقف "**ساترويت**" عن الحديث حين سمع وقع خطوات وراءه ، فلما التفت، رأى رجلا ينم وجهه على الغباء والبرود ، وكان نفس الرجل الذي لم يثير اهتمام "**ساترويت**" في أثناء العشاء .

وقال الرجل لـ"**مابل**" :

– إنهم في انتظارك يا "**مابل**" .

ونهضت "**مابل**" وقد تلاشت كل أمارات السعادة من وجهها ، وقالت بصوت بارد هادىء :

– إنني آتية يا "**جيرارد**" ، كنت أتحدث فقط إلى السيد "**ساترويت**" .

وانصرفت عن الغرفة ، وتبعها "**ساترويت**" بعد أن ألقى نظرة سريعة على وجه زوجها – "**جيرارد**" – ورأى عليه مزيجا من اللهفة والحرمان واليأس .

وقال لنفسه : "يا للمسكين" .. يبدو أنه مسحور بزوجته ، ومحروم منها في نفس الوقت " !

وفي غرفة الجلوس ، جلست "**مابل**" بين المدعوين جميعا ، وأخذت تغني على نغمات قيثارتها ، والجميع يرددون المقطع الأخير من غنائها .

وفيما كان "**ساترويت**" يفكر في إحدى الأغنيات الأثيرة لديه ، إذا بـ"**مابل**" تقطع غناءها ، وتنظر إليه ، ثم تبتسم وتبدأ في ترديد هذه الأغنية التي يفضلها : "ياحماتي الجميلة .."

وانفضت الجلسة بعد ذلك ، وقدمت "**مادج**" إلى الجميع الكؤوس الأخيرة ، بينما كان والدها "**دافيد كيلي**" يعبث بأصابعه في أوتار القيثارة محاولا أن يلعب عليها في ذهول وشرود ذهن . وتبادل الجميع تحيات المساء ، واقتربوا من باب الغرفة للانصراف إلى مضاجعهم ، وكانوا جميعا ، كالمعتاد ، يتحدثون في وقت واحد ، وأخيرا انصرف "**جيرارد آنيسلي**" زوج "**مابل**" تاركا وراءه الآخرين.

وخارج غرفة الجلوس ، تبادل "**ساترويت**" تحية المساء مع السيدة "**جراهام**" والدة الشاب الذي تبادله "**مادج**" الحب ، وكان للطابق الأعلى سلمان : سلم قريب ، وآخر في نهاية الدهليز . وصعدت السيدة "**جراهام**" وابنها إلى غرفتيهما في الطابق الأعلى عن طريق السلم القريب ، وهو نفس السلم الذي صعد عليه قبلهما "**جيرارد آنيسلي**" .

وقالت "**مادج**" لـ"**مابل**" :

– يحسن أن تأخذي قيثارتك من غرفة الجلوس يا "**مابل**" ؛ لأنك إذا لم تأخذيها الآن ، فربما تنسينها غدا عند رحيلك ، لا سيما وأنت تنوين الرحيل في ساعة مبكرة .

وقالت الفتاة "**دوريس كولز**" وهي تمسك بذراع "**ساترويت**" :

– هلم يا عزيزي ، فقد حان وقت النوم .

وتناولت "**مادج**" ذراعه الأخرى ، وسار الثلاثة نحو السلم الذي في نهاية الممر، وضحكات "**دوريس**" تجلجل في المكان كله . وفي نهاية الممر وقفوا ينتظرون "**دافيد كيلي**" الذي جاء وراءهم وهو يطفيء الأنوار الواحد بعد الآخر وهو في طريقه إليهم . وأخيرا صعد الأربعة إلى غرفاتهم .

◆◆◆◆◆

وفي صباح اليوم التالي ، بينما كان السيد "**ساترويت**" يتأهب للهبوط إلى طعام الفطور ، أقبلت إليه "**مادج كيلي**" بوجه شديد الامتقاع ، وقالت وهي ترتعد بشدة :

– أوه .. السيد "**ساترويت**" . يا للفظاعة !

– ماذا حدث يا عزيزتي ؟

– "**مابل**" – "**مابل آنيسلي**" !

– ماذا بها ؟

– شنقت نفسها الليلة الماضية في باب غرفتها .. يا إلهي ! ..

وانهارت "**مادج**" باكية ..

هدأ "**ساترويت**" من روعها بكلمات قليلة مألوفة في مثل هذه المواقف ، ثم أسرع بالهبوط إلى الطابق الأول حيث وجد السيد "**دافيد كيلي**" مضطربا مرتبكا يقول :

– لقد اتصلت بمركز البوليس تليفونيا يا سيد "**ساترويت**" ويبدو أنها ماتت، هكذا قال الطبيب الذي فرغ الآن من فحص جثتها . يا للفظاعة ! لاشك أنها كانت شقية في حياتها إلى حد اليأس .. وإلا لما فعلت بنفسها هذا !

– نعم نعم . هذا ما يبدو ولاشك في هذا .

ثم تردد برهة ، وأردف قائلاً :

– هل يمكن أن . . أن أراها ؟

– أوه ! يمكنك بالتأكيد لقد نسيت أنك تهتم بمثل هذه الأحداث .

وصعد معه على درجات السلم العريض ، وهناك في أول الطابق الثاني كانت غرفة "**روجر جراهام**" ، وفي مواجهتها ، غرفة والدته السيدة "**جراهام**" . وكان باب هذه الغرفة الثانية مفتوحا قليلا ، وتنساب منه سحابة خفيفة من الدخان .

وخامرت الدهشة عقل السيد "**ساترويت**" . فما كان يظن ، أن السيدة "**جراهام**" سيدة تدخن في باكورة الصباح بمثل هذه الكثرة .

وسارا معا في الدهليز حتى وصلا إلى الباب الأخير وفتحه السيد "**دافيد كيلي**" ودخل ووراءه السيد "**ساترويت**" وكانت الغرفة كبيرة تدل على أنها غرفة رجل ، وفي الجدار الأيسر منها باب أوسط يفضي إلى غرفة مجاورة ، ومن أعلى الباب الثاني لهذه الغرفة كانت تتدلى قطعة من الحبل . أما على الفراش ، فكانت ترقد "**مابل**" ، جثة هامدة ، رهيبة المنظر .

ووقف "**ساترويت**" برهة ينظر إلى المرأة التي كانت قبل ساعات معدودة تنبض بالحياة ، وبالسحر والفتنة ، وكانت لا تزال ترتدي الشيفون المكشش والمقصص كأنه ريش طائر . .

ونظر أخيرا إلى الباب وإلى قطعة الحبل المدلاة منه ، ثم انتقل بنظراته إلى الباب الأوسط وقال لـ"**دافيد كيلي**" مشيرا إليه :

– هل كان هذا الباب الأوسط مفتوحا ؟ !

– نعم . هكذا قالت الخادمة .

ألم يسمع "**آنيسلي**" ، زوجها شيئا وهو نائم في هذه الغرفة المجاورة ؟

– يقول إنه لم يسمع شيئا .

– هذا عجيب . أين هو ؟

ولما هبطا إلى الطابق الأول ، وجدا المفتش "**وتكفيلد**" ، الذي يعرفه "**ساترويت**" ، في طريقه مع الطبيب إلى غرفة القتيلة . وبعد لحظات ، عاد المفتش وطلب من الجميع أن يجتمعوا به في غرفة الجلوس .

وكانت "**دوريس كولز**" تمسح الدموع من عينيها وهي تبدو خائفة ، وبدت "**مادج كيلي**" ، كعادتها ، متمالكة لأعصابها ، وكذلك كانت السيدة "**جراهام**" ، رزينة هادئة ، بعكس ابنها "**روجر**" الذي بدا مضطربا أشد الاضطراب . أما السيد "**دافيد كيلي**" ، فكان ، كالمعتاد ، لا يكاد يحس به أحد . وجلس الزوج الحزين ، بمفرده ، في جانب من الغرفة ، تطل من عينيه نظرات ذاهلة شاردة كأنه لا يصدق ما حدث .

ورغم ما كان يبدو على السيد "**ساترويت**" من هدوء ظاهري ، إلا أنه كان شديد الانفعال ، موفور الحماس للدور الذي سيقوم به في هذه المأساة .

وأقبل المفتش يتبعه الدكتور "**موريس**" ، ثم أغلق باب الغرفة وجلس . وبعد أن تنحنح تحدث بكلمات قليلة مناسبة ، ثم قال :

– لسوف أبدأ الآن بالحديث مع السيد "**آنيسلي**" ، بصفته زوج .. المتوفاة . أرجو يا سيد "**آنيسلي**" أن تخبرني ، هل سبق أن سمعت زوجتك تهدد بالانتحار؟ !

وفتح "**ساترويت**" شفتيه رغما عنه ، ولكنه أسرع وزمهما قائلا لنفسه إن في الوقت متسعا للحديث فيما بعد .

وقال "**آنيسلي**" بصوت متردد جعل الجميع يركزون أنظارهم عليه :

– لا . لم أسمعها قط تهدد بالانتحار .

– هل كنت تعرف أنها لسبب ما ، كانت شقية في حياتها ؟

– لا .. لم أكن أعرف شيئا من هذا .

– ألم تحدثك ، مثلا عن شعور مفاجىء بالانقباض وتوتر الأعصاب ؟

– لا . لا أبدا .

هل يمكن لك أن تصف لي في إيجاز ما حدث ليلة أمس ؟

– لقد ذهبنا جميعا إلى غرفنا لننام . وقد استغرقت في النوم فلم أسمع شيئا أو أشعر بشيء . ولم أستيقظ إلا على صراخ الخادمة في الصباح ، فهرعت إلى الغرفة المجاورة عن طريق الباب الأوسط ، فوجدت زوجتي ، وجدتها . . .

وأومأ المفتش برأسه ، وقال :

– نعم . نعم . لا داعي للاستطراد في الحديث عما رأيت . ولكن أين رأيت زوجتك آخر مرة ليلة أمس ؟

– هنا . في هذه الغرفة !

– هنا ؟ !

– نعم . فقد كنت أول من انصرف منها ، وصعدت فورا إلى غرفتي ، تاركا الجميع يتبادلون الحديث قبيل ذهابهم إلى غرفهم .

– ألم تر زوجتك بعد ذلك ؟ ألم تتبادل معها تحية المساء كالمعتاد عندما وصلت إلى فراشها ؟

– كنت نائما عندما وصلت كما يبدو .

– ولكنها تبعتك فورا . أليس كذلك يا سيد "**كيلي**" ؟

ونظر إليّ "**دافيد كيلي**" الذي أومأ برأسه . ولكن "**آنيسلي**" قال بإصرار :

– إنها لم تكن قد عادت إلى غرفتها رغم مرور نصف ساعة من وصولي إلى غرفتي .

والتفت المفتش إلى السيدة "**جراهام**" وقال :

– هل دخلت غرفتك لتتبادل معك الحديث يا سيدة "**جراهام**" ؟

وخُيّل إلى "**ساترويت**" أن السيدة "**جراهام**" ترددت قليلا قبل أن تقول بثبات :

– لا . لقد آويت إلى غرفتي ، وأغلقت الباب من الداخل ولم أسمع شيئا .

وعاد المفتش يسأل "**آنيسلي**" قائلا :

– وأنت يا سيدي ، تقول إنك لم تر أو تسمع شيئا ، ألم يكن الباب الأوسط مفتوحا ؟

– أظن ذلك ! ولكن كان في مقدور زوجتي أن تدخل غرفتها من الباب الآخر ، المؤدي إلى الدهليز مباشرة .

– وحتى لو أنها دخلت من هذا الباب ، فلا بد أنك سمعت أصواتا معينة ، مثل حشرجة الاختناق ، أو الاحتضار ، أو صوت الألم ، أو اصطدام كعبيها في الباب .

– لا . لم أسمع شيئا .

وهنا لم يستطع السيد "**ساترويت**" أن يكبح جماح لسانه ، فقال :

– معذرة يا سيدي المفتش . إنك تسير في طريق خاطئ . فإن "**مابل آنيسلي**" لم تنتحر ، وإنما قتلت . أنا واثق بهذا !!

وخيم الصمت الرهيب على الجميع برهة ، وإذا بالمفتش يقول :

– ما الذي يدفعك إلى هذه الثقة ؟

– شعوري الخاص . وهو شعور قوي .

– ولكنني أعتقد أنه لابد أن يكون هناك سبب أقوى من مجرد الشعور .

وقال "**ساترويت**" لنفسه :

"بالتأكيد هناك سبب أقوى ، إنها رسالة "**كوين**" الخفية . ولكنني لا أستطيع أن أقول هذا للمفتش" .

وبصوت مسموع قال :

– في هذه الليلة الماضية ، عندما كنت أتحدث إليها ، قالت لي إنها سعيدة جداً جداً . إنها سوف تغدو بعد أيام قليلة أسعد امرأة في الدنيا ، فكيف يتفق هذا مع الانتحار ؟

ثم أردف قائلا بصوت الرجل المنتصر :

– وقد عادت إلى غرفة الجلوس لتأتي بقيثارتها حتى لا تنساها عندما ترحل عن القصر في ساعة مبكرة من الصباح فهل هذا سلوك امرأة تنوي الانتحار في نفس الليلة ؟

فقال المفتش موافقا :

– لا بالتأكيد لا .

ثم استدار إلى "**دافيد كيلي**" وقال له :

– هل أخذت معها قيثارتها إلى غرفة نومها ؟

ففكر "**دافيد كيلي**" برهة ثم قال :

– نعم . أعتقد هذا . لقد صعدت درجات السلم وهي تحملها . فانا أعتقد أني

رأيتها في يدها وهي تنعطف في منحنى السلم قبل أن أطفىء الأنوار .

فهتفت "**مادج**" قائلة وهي تشير إلى مائدة قريبة :

– عجبا ! ولكن القيثارة موجودة هنا في هذه الغرفة على هذه المائدة .

فقال المفتش وهو يخطو بسرعة ويضغط على جرس الخدم :

– هذا غريب !

ولما حضر أحد الخدم ، طلب منه استدعاء الخادمة المخصصة لترتيب الغرف في الصباح وكانت الخادمة حين أقبلت ، واثقة بإجابتها . فقد قالت إن القيثارة كانت أول شيء رأته في هذه الغرفة ، غرفة الجلوس ، عندما جاءت لترتيبها في الصباح .

وصرفها المفتش "**وتكفيلد**" ، ثم قال وهو يلوي شفتيه :

– أحب أن أتحدث على انفراد إلى السيد "**ساترويت**" . أرجو من الجميع الانصراف الآن ، على ألا يغادر أحد الدار .

وقال "**ساترويت**" متململا بعد أن انصرف الجميع وأغلقوا وراءهم الباب :

– أنا واثق تماما يا سيدي المفتش بأن خيوط القضية قد أصبحت كلها بين أصابعك. والواقع أنني أحسست بأن في الأمر جريمة ، وأن إحساسي في هذه الناحية قوي .

– إنك على حق يا سيد "**ساترويت**" . فهذه السيدة لم تنتحر ، وإنما قتلت .

فقال "**ساترويت**" دهشا :

– أكنت تعرف هذا ؟

فأجاب المفتش قائلا وهو ينظر إلى الدكتور "**موريس**" الذي ظل جالسا في هدوء:

– هناك بعض الظواهر التي أثارت شكوك الدكتور "**موريس**" . فبعد الفحص الدقيق ، ثبت لنا أن الحبل الذي وجدناه حول عنقها ، لم يكن نفس الحبل الذي اختنقت به . لقد اختنقت بحبل أقل سمكا بكثير . حبل رفيع جداً يشبه السلك؛ لأنه غاص في لحم العنق . وبعد أن تم خنقها لف عنقها بالحبل الآخر المعلق بباب غرفتها لكي يبدو الأمر كأنه حادث انتحار . .

– ولكن . . من ؟ !

– هذه هي المشكلة : من القاتل ؟ ! ما رأيك في الزوج الذي ينام في الغرفة المجاورة ، والذي لا يتبادل مع زوجته تحية المساء ، والذي لم يسمع شيئا ؟ إن الأمر واضح بالنسبة إليه . ويحسن أن نعرف كيف كانت الحياة الزوجية بينه وبين المجني عليها . فهل يمكن أن تساعدنا في هذا الأمر يا سيد "**ساترويت**" ؟

فشد "**ساترويت**" قامته ، وقال محتجا :

– أرجو يا سيدي المفتش أن تعفيني من . . .

– ليست هذه أول جريمة غامضة تساهم في كشف أسرارها يا سيد "**ساترويت**" . إنك موهوب في هذه الناحية . نعم . نعم . هذه حقيقة ! إنه موهوب في هذه الناحية . وقال "**ساترويت**" بابتسام :

– لسوف أبذل جهدي يا سيدي المفتش .

هل "**آنيسلي**" هو قاتل زوجته حقًّا ؟ إن "**ساترويت**" يتذكر النظرة البائسة التي رآها تطل من عينيه في الليلة الماضية . لقد كان يحبها ، وكان يشقى بهذا الحب والشقاء في الحب يدفع المحب أحيانا إلى أفعال عجيبة شاذة .

ولكن هناك شيئا آخر ، حقيقة أخرى . لقد تحدثت "**مابل**" عن نفسها كإنسانة توشك أن تخرج من غياهب غابة مظلمة إلى نور مدينة الأحلام . كانت تتوقع السعادة ، سعادة من نوع كله المتعة واللذة والسرور العميق المركز .

فإذا كان "**آنيسلي**" قد صدق في قوله أن زوجته لم تأتِ إلى غرفتها حتى بعد مرور نصف ساعة من وصوله هو إلى غرفته . ومع ذلك فقد شهد "**دافيد كيلي**" أنه رآها تصعد إلى الطابق الثاني عقب انصراف الجميع من غرفة الجلوس . إن في هذا الطابق الثاني ، غرفتين يقيم فيهما مدعوان آخران : هما السيدة "**جراهام**" ، وابنها، "**روجر جراهام**" .

وقد أنكرت السيدة "**جراهام**" ، أن "**مابل**" تخلفت في غرفتها للحديث إليها ! .

لم يبق إذن غير "**روجر**" !

ولكن "**روجر**" يتبادل الحب مع "**مادج كيلي**" ، وسوف يعلنان خطبتهما قريبا .

وفجأة تذكر السيد "**ساترويت**" الدخان الذي رآه ينساب من غرفة السيدة "**جراهام**" ، وعجب من أمره وتصرف بالغريزة والحافز المفاجئ . فأسرع إلى غرفة السيدة "**جراهام**" ، ووجدها خالية ، فأغلق الباب بالمفتاح من الداخل ، وأدار نظره في أنحاء الغرفة ، وحانت منه نظرة إلى قاعدة المدفأة حيث وجد كومة الرماد التي تدل على أن أوراقا كثيرة كانت تحرق فيها . ولم ييأس ، وإنما راح يعبث في الرماد حتى عثر على قصاصات لم يتم احتراقها ، فتناولها برفق ، وقرأ فيها هذه العبارات المتناثرة :

"لا يمكن أن تصبح الحياة أجمل وأروع مما نحن فيه يا عزيزي "**روجر**" ... إنني لم أكن أعرف .. كل حياتي كانت كابوسا مرعبا حتى عرفتك يا"**روجر**" .. "

"أظن أن "**جيرارد**" عرف كل شيء ، إنني آسفة . فماذ يمكنني أن أفعل ؟ ليس في الدنيا شيء حقيقي غيرك . لسوف نسعد بالحياة معا قريبا ... " .

"ماذا تنوي أن تقول له في قصر "**لايدل**" يا "**روجر**" ؟ إنك تكتب بطريقة غامضة .. ولكني لست خائفة " .

ووضع السيد "**ساترويت**" هذه القصاصات بعناية في ظرف أخذه من منضدة الكتابة . ثم خطا نحو الباب وفتحه ، ليجد نفسه وجها لوجه أمام السيدة "**جراهام**" .

وكان يعرف في مثل هذه المواقف الحرجة أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . ومن ثم قال :

– كنت أفتش غرفتك يا آنسة "**جراهام**" ، وقد عثرت على مجموعة من الرسائل لم تحترق تماما .

ولاح الفزع في وجهها برهة خاطفة ، ولكنها لم تلبث أن استردت هدوءها فعاد "**ساترويت**" يقول :

– رسائل غرامية من السيدة "**آنيسلي**" إلى ابنك "**روجر**" .

فترددت برهة ، ثم قالت :

– هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها . ولهذا رأيت من الأفضل إحراقها .

– لماذا ؟

– لأن ابني سيتزوج قريبا ، وهذه الرسائل ، إذا عرف أمرها بعد انتحار المسكينة ، ستثير فضائح لا داعي لها .

– كان يمكن أن يتولى ابنك إحراقها ؟

ولما لم تجب ، استغل "**ساترويت**" هذه الفرصة وأردف قائلا :

– أنت قد عثرت على هذه الرسائل في غرفته ، فحملتها إلى غرفتك لإحراقها، فلماذا يا سيدة "**جراهام**" ؟ هل كنت خائفة من شيء ؟ . .

– إنني لم أتعود أن أخاف شيئا يا سيد "**ساترويت**" .

– نعم . ولكن هذه حالة خاصة تدعو إلى الاضطراب والخوف .

– الاضطراب والخوف ؟

– نعم . الخوف من أن يلقى القبض على ابنك بتهمة القتل .

– القتل ؟ !

ورأى مدى امتقاع وجهها ، فأسرع يقول :

– لقد سمعت السيدة "**آنيسلي**" وهي تدخل غرفة ابنك الليلة الماضية ، ويبدو أنه أخبرها عن غرامه بـ"**مادج**" ورغبته في الزواج بها ، فثارت عليه ، وحدثت بينهما مشادة عنيفة . .

– هذا كله كذب . .

وكان القائل هو "**روجر جراهام**" بعد أن وصل إليهما دون أن يشعر به أحدهما . ثم أردف قائلا :

– حسنا يا أماه . لا تقلقي . تعال إلى غرفتي يا سيد "**ساترويت**" .

وتبع "**ساترويت**" الشاب إلى غرفته ، ولم تحاول الأم أن تمضي وراءهما ، وأغلق

"**روجر**" باب الغرفة مّن الداخل ثم قال :

- اسمع يا سيد "**ساترويت**" ، إنك تظن أنني قتلت "**مابل**" . تظن أنني قتلتها هنا ، ثم حملتها بعد ذلك وعلقتها في باب غرفتها عندما استغرق الجميع في النوم. أليس كذلك ؟ !

وحملق "**ساترويت**" إلى وجهه دهشا ثم قال :

- لا. إنني لا أظن هذا .

- حمداً لله؛ لأنني لم أكن لأستطيع قتل "**مابل**" . فقد كنت أحبها ، أو هكذا توهمت . فأنا في الواقع لا أدري هل كان حبا أم وهما . ولكنني أميل جداً إلى "**مادج**" ، وكنت دائما أميل إليها . وهي في الحقيقة خير زوجة . أما "**مابل**" فإنها تختلف كثيرا . ولست أدري ماذا أقول . إنها سحرتني ولكني كنت أشعر بالخوف منها .

وأومأ "**ساترويت**" برأسه ، بينما استطرد "**روجر**" قائلا :

- وأردت أن أضع نهاية لعلاقتي بـ"**مابل**" ، وكنت أنوي أن أحدثها في هذا الأمر في الليلة الماضية .

- ولكنك لم تفعل ؟

- لا ، لم أفعل . وأقسم لك على هذا . إنني لم أرها بعد أن تبادلت معها تحية المساء في الطابق الأول .

- إنني أصدقك .

ونهض وهو يؤكد لنفسه أن "**روجر**" ليس هو القاتل . لقد كان يود أن يفر منها، لا أن يقتلها . لقد أدرك أخيرا أنه كان مفتونا مسحورا بها ، ولكنه قرر أن يتحرر من ربقة هذا السحر ، وأن يلجأ إلى مرفأ أمين . إلى فتاة لطيفة هادئة متزنة مثل "**مادج**" .

وهبط "**ساترويت**" إلى غرفة الجلوس ، فوجدها خالية ، ولكنه رأى قيثارة "**مابل**" موضوعة على النافذة فتناولها وراح يداعب أوتارها في شرود ذهن ، ورغم أنه لم يكن يجيد العزف على الآلات الوترية ، إلا أن أذنه المرهفة أدركت وجود

نغـمة نشـاز واضحـة في الوتر الغليظ الأول . وعبـثـا حـاول أن يضبـط هذا الوتر ، وفجأة أقبلت "**دوريس**" ونظرت إليه في عتاب وهي تقول :

– أوه ، هذه قيثارة "**مابل**" المسكينة !

فقدمها "**ساترويت**" إليها وقال :

– هل يمكن أن تضبطي لي هذا الوتر ؟

– نعم . بالتأكيد .

وتناولتها منه ، وما كادت تضغط على مفتاح ضبط الوتر حتى فوجئت به ينقطع فهتفت قائلة وهي تفحصه :

– عـجـبـا !! إنـه ليس الوتـر المفـروض أن يـوضـع في هذا المكان . إنه وتر لـيس من النوع "أ" وليس هذا موضعه . ولهـذا انقطع حـينمـا أردت أناأضبطه . مـا أحـمق بعض الناس !

– نعم . ما أشد حماقة بعض الناس حين يظنون أنهم عباقرة !

وكان في نبرات صوته ما جعل "**دوريس**" تنظر إليه في عجب وتساؤل . ولكنه تناول الوتر المقطوع منها ومضى به إلى غرفة المكتبة ، حيث وجد السيد "**دافيد كيلي**" ، فقال له وهو يقدمه إليه :

– هاك يا سيد "**كيلي**" .

فتناوله "**دافيد كيلي**" منه وقال :

– ما هذا ؟

– وتر مقطوع . ماذا فعلت بالوتر الأصلي يا سيد "**كيلي**" ؟

– الوتر الأصلي ؟

– نعم . الوتر الذي خنقت به "**مـابل آنيـسلي**" . لقـد كنت بـارعـا في ارتكاب هذه الجريمة ، أليس كذلك ؟ لقد ارتكبتها بسرعة بالغة ، أي في الوقت الذي كنت أمـضي فيـه مع "**دوريس**" و "**مادج**" إلى السلـم الآخـر في نهـاية الدهليـز . أليس كـذلك ؟ لقد عادت "**مابل**" إلى غـرفة الجلوس لتـأخـذ قـيـثـارتـهـا ، وكـنت أنت قد انتزعت الوتـر في أثناء مداعبتك للأوتار بأصابعك ونحن ننصرف من الغرفة . فلما

دخلت الغرفة ، فاجأتها من الخلف ولففت الوتر حول عنقها ، وخنقتها به . ولاشك أن حشرجتها ضاعت في رنين ضحكات "**دوريس**" ونحن في الدهليز ، وبعد ذلك خرجت من الغرفة ورحت تطفيء الأنوار حتى انضممت إلينا . وفي سكون الليل ، فيما بعد عدت إلى غرفة الجلوس ، وحملت جثتها ، وعلقتها في باب غرفتها . ثم وضعت وترا آخر في القيثارة، ولكنك لم تفطن أنك وضعت وترا مخالفا للوتر الأصلي . وهذه هي الهفوة التي كشفت أمرك .

ولما لم يجب "**دافيد كيلي**" بشيء ، أردف "**ساترويت**" قائلا :

– ولكن ، لماذا فعلت هذا ؟ لماذا ؟

وفجأة أرسل "**دافيد كيلي**" ضحكة عالية جوفاء رهيبة الرنين جعلت "**ساترويت**" يشعر بالغثيان ، ثم قال :

– لشد ما كان الأمر بسيطا ! هذا هو السبب . وهناك سبب آخر ، هو أن الناس جميعا كانوا لا يلحظونني . كانوا يحسبون أنني كم مهمل لا قيمة له. ولم يكن بينهم من يحاول أن يهتم بأمري أو يعرف ماذا أفعل . وقد أردت أن أسخر منكم جميعا .

ومرة أخرى أرسل ضحكة رهيبة وهو يحملق إلى وجه "**ساترويت**" بعينين يطل منهما الجنون .

وتنهد "**ساترويت**" في ارتياح عندما رأى المفتش "**وتكفيلد**" يدخل الغرفة في تلك اللحظة .

◆◆◆◆◆

وبعد أربع وعشرين ساعة ، استيقظ السيد "**ساترويت**" من نومه في مقصورته بمركبة النوم بالقطار الذاهب إلى "**لندن**" ، ثم إذا هو يفاجأ برجل طويل نحيل ملوح البشرة يقف أمامه ، فتمتم قائلا بلا دهشة :

– عزيزي السيد "**كوين**" ؟

– نعم ، إنني هنا .

– إنني خجول من نفسي . لقد فشلت في مهمتي .
– أحقًّا فشلت ؟
– إنني لم أستطع إنقاذها !
– ولكنك اكتشفت أمر القاتل .
– نعم . نعم . فقد كان من الممكن أن يتهم أحد الشبان من المدعوين بقتلها ، وبذلك أنقذت واحدا منهم من الموت ظلما .. ولكن .. هذه المخلوقة العجيبة الساحرة ..
– هل الموت هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث للإنسان ؟
– إنني ، إنني لا أدري . ربما لا .
– لو أنها عاشت ، ألم يكن من المحتمل أو المؤكد أن تثير فضيحة تفسد بها حياتها ، وحياة زوجها ، وحياة "**مادج**" و "**روجر جراهام**" ؟
– نعم.. نعم .. ولكن ..
ورفع "**ساترويت**" عينيه ، وإذا به لا يجد أثرا للسيد "**كوين**" أمامه ..

- 3 -

آخر الدنيا

كان السيد "**ساترويت**" رغم ثرائه الواسع ، من أولئك الذين يحبون مصاحبة الكبراء وذوي الألقاب الفخمة الضخمة أيًا كانت عيوبهم . فلا عجب إذا أحس بالرضا والبهجة حين طلبت منه الدوقة "**أوف ليث**" أن يصحبها في رحلة صيفية إلى جزيرة "**كورسيكا**" .

كانت سيدة في مثل سنه ، ترتدي الملابس السوداء المرصعة بمجموعة الجواهر الضخمة التي ورثتها عن آبائها وأجدادها . وكانت عادة تثبِّت هذه الجواهر في ملابسها كما كانت تفعل أمها ، حتى أن بعض الظرفاء يتندرون عليها قائلين إنها

تعودت أن تقف في وسط غرفتها وتترك خادمتها تقذف بالجواهر ذات المشابك عليها فتثبت كل قطعة كيفما اتفق !

وكانت حريصة في إنفاق المال ، فهي تطلب من أصدقائها دائما أن يعيروها سياراتهم ، أو يدعوها تركب معهم من مكان إلى آخر ، كما تعودت أن تشتري جميع حاجاتها من الأماكن التي يسمح فيها بالمساومة في الشراء.

ولكنها ، مع هذا الحرص ، كانت تتبرع بمبالغ طائلة للجمعيات الخيرية ، وتعامل مستأجري أملاكها بالعدل والحسنى .

ولما كانت دائمة الشكوى من ارتفاع مستوى المعيشة في شاطئ "**الريفييرا**" ، فقد قررت أن تمضي فترة مع السيد "**ساترويت**" في جزيرة "**كورسيكا**" ، حيث ينخفض مستوى المعيشة ، وحيث تكثر الأماكن الأثرية والسياحية الجديرة بالمشاهدة .

وفي بهو فندق متواضع بميناء "**أجاكيو**" ، جلست الدوقة مع السيد "**ساترويت**" عقب وصولهما بحرا إلى الميناء . وبعد أن تناولا طعام فطور خفيفا وشربا القهوة ، رفعت منظارها اليدوي إلى عينيها ، وطافت بنظراتها على الجالسين في البهو ، ثم هتفت فجأة :

– عجبا عجبا ! لن أكون الدوقة "**أوف ليث**" إذا لم تكن هذه هي "**نوامي كارلتون سميث**" .

وأشارت إلى فتاة كانت جالسة بمفردها إلى مائدة بجانب النافذة ، مرتدية ثوبا رخيصا قاتم اللون ، ويبدو شعرها الأسود متهدلا بغير عناية أو تصفيف . وسألها السيد "**ساترويت**" قائلا وهو يتأمل الفتاة :

– فنانة ؟

– نعم . أو هكذا تقول عن نفسها . فأنا أعلم أنها تعيش في ركن عجيب من أركان العالم ، فقيرة ، معدمة ولكنها أشد كبرياء من إبليس ، وهي مغرورة بالوراثة مثل جميع آل "**كارلتون سميث**" . إن أمها كانت ابنة عمي مباشرة .

وبعد برهة من الصمت استطردت تقول عن "**نوامي**" :

– إنها دائما عدوة نفسها فقد عقدت خطبتها إلى شاب بغيض صعلوك يشتغل بتأليف المسرحيات ونَظم الشعر وما إلى هذا من الكلام الفارغ . وبالتأكيد لم يجد من يشتري إنتاجه ، فسرق جواهر بعض الناس ، وقبض عليه، ولا أذكر كم سنة صدر، الحكم بحبسه . أظن خمسة أعوام . ولا شك أنك تذكر هذه القضية ، فقد كانت في الشتاء الماضي .

– في الشتاء الماضي كنت في "**مصر** " ، فبعد نوبة برد عنيف ، نصحني الأطباء جميعا بتمضية الشتاء في "**مصر** " .

وعادت الدوقة تحدق النظر إلى وجه الفتاة بمنظارها من بعيد ، ثم قالت :

– يلوح لي أن هذه الفتاة في حالة ضنك شديد ، وإنني لا أسمح بذلك .

ونهضت وسارت إلى مائدة الفتاة ، ثم توقفت وربتت على كتفها وقالت :

– "**نوامي**" . يبدو أنك لا تذكرينني ؟

فوقفت الفتاة في تراخٍ وقالت :

– إنني أذكرك يا دوقة ، فقد رأيتك وأنت تنزلين بهذا الفندق ، وخطر لي أنك ربما لن تعرفيني .

وكانت تتحدث بصوت متراخ ممطوط . ولكن الدوقة تجاهلت هذه النبرات وقالت آمرة :

– عندما تفرغين من تناول طعامك ، تعالي إليَّ في الشرفة .

وتثاءبت "**نوامي**" .

وبعد لحظات انضمت إلى الدوقة والسيد "**ساترويت**" ، وتهالكت في مقعدها بنفس الحركة المتراخية المستهترة ، وهنا أتيحت لـ"**ساترويت**" فرصة تأمل وجهها . وقد قرر في النهاية أنه وجه أخطأه الجمال ، ولكنه ينم عن ذكاء و .. شقاء ..

وقالت لها الدوقة بنشاط :

– حسنًا يا "**نوامي**" ! وماذا تفعلين الآن بنفسك ؟

– أوه ! لا أدري أتفرج على الدنيا فقط .

– أترسمين ؟

– قليلا .

– فرجيني على رسومك .

وابتسمت "نوامي" في استهتار للهجة الآمرة التي تتحدث بها الدوقة ولكنها غابت لحظات ، ثم عادت بمجموعة صغيرة من لوحاتها الحديثة ، وأخذت تعرضها على الدوقة وعلى السيد "**ساترويت**" وهي تقول للأولى :

– صارحيني برأيك فيها ، ولو أني أعرف هذا الرأي مقدما .

وقالت الدوقة عن الصورة الأولى :

– أين أولها ، وأين آخرها ؟ إنني لا أعرف إن كانت في وضع معتدل أم مقلوب .

وعن اللوحة الثانية قالت :

– ما أفظع هذا !

وقال السيد "**ساترويت**" :

– إن هذه اللوحة تثير الرعدة في النفس !

فابتسمت الفتاة وقالت :

– هذا أبلغ ثناء عليها ، لأن هذا هو المقصود فعلا .

وكانت اللوحة ترمز إلى مجموعة من الفواكه المعطبة تعيث فيها الديدان فسادا، وكانت مرسومة ببراعة وإتقان وموهبة فنية جعلت "**ساترويت**" يقول :

– ما ثمن هذه اللوحة ؟

– إن كل لوحة ثمنها خمسة جنيهات . يمكنك شراء ما يعجبك منها .

– إنني أريد هذه اللوحة بالذات .

– أحسنت الاختيار . فهي أفضلها جميعا .

وكانت في هذه المرة تتحدث إليه بصوت ينم عن التقدير والاحترام بعد أن أدركت مدى ما يتمتع به من ذوق فني . أما هو فقال :

– أؤكد لكِ أن هذه اللوحة بعد سنوات معدودة ستساوي ثروة كاملة إذا خطر لي أن أبيعها .

ونظرت الفتاة إليه طويلا وقد بدا من نظراتها أن احترامها له قد تضاعف .

وقالت الدوقة :

– لن يستطيع أحد أن يقنعني أن هذه الطريقة في الرسم نوع من الفن بأي حال . حسنًا ، إنني سأمكث هنا بضعة أيام فقط ، وأحب أن أستمتع بمشاهد الجزيرة . إن لديك سيارة يا "**نوامي**" ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– عظيم جدًّا . غدا نقوم في سيارتك برحلة إلى الجبال .

– إنها سيارة صغيرة ذات مقعدين فقط .

– ولو . لابد أن لها مقعدا صغيرا خلفيا يمكن للسيد "**ساترويت**" أن يجلس فيه .

وارتعد "**ساترويت**" وهو يذكر طرق الجزيرة الجبلية الخطيرة ، ولكن الفتاة أسرعت تقول :

– إنها سيارة مستعملة قديمة لا يمكن أن تتحمل ثلاثة أشخاص في طريق جبلي صاعد . يمكنك يا دوقة أن تستأجري سيارة من جراج بالمدينة .

– أستأجر سيارة ؟ ! يا للفضيحة !! ترى من ذلك السيد ذو الوجه الأصفر الجالس هناك ، والذي أقبل الآن في سيارة بأربعة مقاعد ؟

– إنه السيد "**توملينسون**" ، قاضي هندي متقاعد .

– هذا هو سر صفرة بشرته . ولكن يبدو أنه إنسان لطيف مهذب . لسوف أتحدث إليه .

وفي المساء وجد "**ساترويت**" الدوقة ، في ثوب من المخمل الأسود ، المرصع بجميع جواهرها ، تتبادل الحديث في اهتمام مع صاحب السيارة ذات المقاعد الأربعة في بهو الفندق . ولما لمحته ، أشارت إليه تدعوه قائلة :

– تعال يا سيد "**ساترويت**" . إن السيد "**توملينسون**" يحدثني عن أعجب الأشياء ، وفوق هذا ، فقد تطوع ليصحبنا في رحلة جبلية غدا بسيارته .

ونظر "**ساترويت**" إليها في إعجاب شديد ، بينما أردفت هي قائلة :

– هلم إلى طعام العشاء يا سيد "**ساترويت**" ، ويمكن للسيد "**توملينسون**" أن يجلس إلى مائدتنا ويستطرد في أحاديثه الممتعة عن عجائب "**الهند**" .

وأخيرا بعد العشاء ، وبعد انصراف السيد "**توملينسون**" قالت الدوقة :

– إنه رجل لطيف مهذب .

– ويمتلك سيارة لطيفة مهذبة !

– يا خبيث !!

وضربته بطرف مروحتها على يده مداعبة ، ثم أردفت قائلة :

– وسوف تأتي "**نوامي**" أيضا ، في سيارتها . إن هذه الفتاة تحتاج إلى من يأخذ بيدها ليخرجها من نطاق نفسها . إنها أنانية جدًّا ، لا تهتم بأحد ، ولا يهمها إلا نفسها .

– إنني أرى الأمر على النقيض ، إذ يُخيّل إليَّ أنها شديدة الاهتمام بشيء معين، ولكنها تقف عاجزة ، لا تدري ماذا تفعل ، لهذا فهي تسلك سلوك الإنسان اليائس .

– أوه ! لا تكن أحمق يا "**ساترويت**" ، دعك من الفتاة وانصت إليَّ بشأن ترتيبات رحلة الغد .

وأنصت "**ساترويت**" ؛ لأن الإنصات كان الطابع الواضح في حياته .

وبدأوا الرحلة في صباح اليوم التالي ومعهم طعام الغذاء وأخذت "**نوامي**" على عاتقها أن تكون الرائدة والمرشدة؛ لأنها أمضت في الجزيرة بضعة أشهر.

وذهب السيد "**ساترويت**" إليها وهي جالسة في سيارتها تنتظر وقال لها :

– هل أنت واثقة بأنك لا تستطيعين أن تسمحي لي بالركوب معك ؟

– إنك ستكون أكثر راحة في السيارة الأخرى ذات المقاعد الوثيرة القوية ، أما سيارتي هذه ، فإن من الخطر ركوبها في طريق جبلي وعر .

– ولكن إذا كنت ستركبينها ، فلماذا لا أركبها معك ؟

فنظرت إليه بإمعان وقالت :

– ولماذا تركب معي ؟

هل يقول لها لأنه يرى من تصرفاتها ، ومن إهمالها لنفسها ، ومن نظرات عينيها أنها تفكر في الانتحار ، وأنها قد تنتهز فرصة هذه الرحلة لتنتحر بطريقة تبدو للجميع أنها مجرد حادث وقع بالقضاء والقدر ؟

لا . إنه لا يستطيع أن يصارحها بهذا ؛ لأنه قد يكون مخطئا في تصوراته .

ولما رأى أن الموقف سيتحرج ، قال :

– حسنًا ، ربما تسمحين لي بالركوب معك في رحلة العودة .

وهنا أرسلت ضحكة عجيبة النبرات ، وقالت :

– نعم . نعم . في رحلة العودة ، إذا شاء القدر أن نعود .

وبدأت الرحلة . وانطلقت سيارة "**توملينسون**" في المقدمة سريعة كالطائر ، وظلت السيارة الثانية تتبعها في الطريق الجبلي الصاعد دائما ، وكان الهواء يزداد برودة كلما أمعنوا في الصعود حتى أصبح يهب عليهم قاطعا ، كحد السكين ، وفجأة أوقف "**توملينسون**" السيارة ونظر وراءه ، ثم قال :

– لقد وصلنا إلى آخر الدنيا ، وأعتقد أن الجو سوف يضطرب بعد قليل .

وهبط الجميع بالقرب من قرية في قمة الجبل ، مكونة من عشرة أكواخ حجرية . في مدخلها لافتة مكتوب عليها "**كوتي تشيافيري**" ولكن "**نوامي**" قالت :

– هذا هو اسمها الرسمي ، ولكنها تسمى بقرية "**آخر الدنيا**" .

وسارت خطوات قليلة حتى انضم إليها "**ساترويت**" ثم توقفت أمام حاجز جبلي ضخم وقالت :

– هذا هو نهاية الطريق الوحيد في القرية . وليس بعده شيء أي أننا الآن في بداية ما لا تعرف نهايته . فالإنسان في أي مكان في الدنيا يستطيع أن يختار الاتجاه الذي يواصل المسير فيه ، يمينا ، أو يسارا ، أو أماما . ولكن الإنسان في هذا الموضع لا يستطيع إلا أن يعود أدراجه ، ولهذا سماه الأهالي ، "آخر الدنيا" !

وتنفس السيد "**ساترويت**" بعمق وقال :

– هذا مكان عجيب فعلا ، يمكن أن يحدث فيه أي شيء ، أو يلتقي فيه بأي

شخص ..

وتوقف عن الحديث فجأة حين لمح رجلا يجلس على صخرة ناتئة ينظر إلى ناحية البحر الذي يبدو بعيدا . ولم يكن أحدهما قد رآه من قبل في تلك المنطقة وكأنما قد انبثق فجأة من المناظر المحيطة بها .

وقبل أن يقول السيد " **ساترويت**" شيئا ، إذا بالرجل يستديره نحوه ، وإذا هو يقول :

– عجبا ! إنه السيد "**كوين**" . دعيني يا آنسة "**كارلتون سميث**" أقدم إليك السيد "**كوين**" . إنه أعجب شخصية عرفتها أليس كذلك يا سيد "**كوين**" ؟ إنك دائما تظهر في الوقت المناسب .

وتوقف فجأة وقد شعر أنه يتحدث بعبارات لا معنى لها ، هذا بينما كانت "نوامي" تصافح السيد "**كوين**" وتقول له :

– إننا هنا في نزهة جبلية ، ولكن يبدو أننا سنموت جميعا متجمدين من البرد والثلج .

وقال السيد "**ساترويت**" وهو يرتعد :

– ربما نستطيع أن نجد مكانا نحتمي به . إن الآنسة "**كارلتون سميث**" تسمي هذا المكان "آخر الدنيا" .

– نعم . إنه اسم ينطبق عليه فعلا . أهذه سيارتك يا آنسة "**كارلتون سميث**" ؟

– نعم . إنها كما ترى صغيرة وعتيقة !

– إن قيادتها تحتاج إلى براعة خاصة ، فإن أقل خطأ في الانحراف أو في استجابة الفرامل يؤدي إلى انقلابها في إحدى الهاويات .

ولما انضموا إلى الدوقة والقاضي الهندي ، قدم السيد "**ساترويت**" صديقه إليهما، ثم انفردت به الآنسة "**كارلتون سميث**" وقالت له في حدة :

– من هذا الرجل ؟

– إنني شخصيا لا أدري تماما ، لقد عرفته منذ أعوام ، ونحن نلتقي مصادفة بَين الحين والآخر ، وفي ظروف عجيبة .

– ولكنه من الذين يعرفون الأسرار التي تنطوي عليها النفوس . هذا ما يبدو بوضوح فإن نظراته نفاذة . .

– نعم .نعم . إن الإنسان لا يسعه يا آنسة "**كارلتون سميث**" إلا أن يخاف من نظراته .

وفي تلك اللحظة سقطت من الجو ندفة من الثلج على وجهه ، ثم إذا بالجليد يتساقط في سرعة وغزارة جعلت الجميع يرحبون باقتراح السيد "**كوين**" حين قال إنه يعرف كوخا حجريا في نهاية المنازل ، مخصصا لإيواء السائحين الذين يفاجئهم الجو بتقلباته . وفي أثناء الطريق إليه ، قال :

– المعتاد أن يكون لدى السائح مؤنته من الطعام كما هو الشأن معكم ، ولكن صاحبة الكوخ تقدم إلى الضيوف القهوة نظير أجر بسيط .

وكان الكوخ مكونا من غرفة متوسطة الحجم ، لها نافذة صغيرة في جانب منها ، وفي الجانب الآخر مدفأة ضخمة تشع منها حرارة النيران . وكان ثمة امرأة كورسيكية تغذي هذه النيران بحزم من الحطب الجاف .

وفي نهاية الغرفة ، أمام طاولة خشبية ، كان ثمة ثلاثة أشخاص من السياح يحتمون أيضا بالكوخ من الصقيع المنهمر كانوا رجلين وسيدة ، سيدة بدت كأنها دوقة حقيقية ، أو نموذج للممثلة الأولى في مسرح عريق، طويلة القامة ، بلاتينية الشعر ، أنيقة الملابس ، رائعة السلوك ، كانت تعتمد بذقنها على يدها وتمسك بالأخرى شطيرة مستطيلة . وإلى جانبها الأيسر جلس رجل ناصع بياض الوجه ، رمادي الشعر ، يرتدي ملابسه السوداء بأناقة ، ويضع على عينيه نظارة ذات إطار سميك . وإلى جانبها الأيمن جلس رجل صغير الجسم ، خفيف الظل ، أصلع الرأس، لا يكاد يثير انتباه أحد .

ومرت لحظات من الحرج ، ولكن الدوقة – الدوقة الأصلية – بدأت الهجوم بقولها وهي تتقدم لتجلس إلى الطاولة الخشبية :

– يا لها من عاصفة ثلجية رهيبة ! لا شك أنها فاجأتكم مثلنا . ولكن

"**كورسيكا**" على أي حال جزيرة جميلة ، لقد وصلت إليها أمس .

نهض الرجل الأنيق الطويل في احترام ، وجلست الدوقة في مقعده شاكرة، بينما قالت السيدة ذات الشعر البلاتيني .

– إننا هنا منذ أسبوع !

وكتم "**ساترويت**" أنفاسه دهشة حين سمع السيدة وهي تنطق هذه العبارة البسيطة . لقد كان في نبرات صوتها ، وفي طريقة إلقائها ، مما جعل الكلمات تنبض بالحياة ، وبالسحر ، وبالجاذبية ، وكأنما هي لا تتحدث بلسانها فقط ، وإنما من صميم قلبها .

وأسرع "**ساترويت**" يقول للقاضي الهندي السيد "**توملينسون**" :

– إن الرجل الأنيق ذا النظارة مخرج . كما تعلم . اسمه السيد "**فايز**" .

– ماذا يخرج ؟

– مسرحيات

وفجأة قالت "**كارلتون سميث**" بصوت حاد عنيف :

– إن الجو هنا خانق ، سأخرج إلى الهواء الطلق رغم البرد والصقيع .

ولكن السيد "**كوين**" اعترض طريقها عند الباب وقال لها بهدوء وحزم :

– عودي إلى مكانك واجلسي

وفوجئ السيد "**ساترويت**" بالفتاة تستكين للأمر ، ثم تجلس إلى طرف الطاولة في معزل عن الآخرين .

وتقدم إلى المخرج ، وجلس أمامه وقال :

– لعلك لا تذكرني يا سيد "**فايز**" . إن اسمي "**ساترويت**" .

فمد السيد "**فايز**" يده وصافح "**ساترويت**" بقوة وقال :

– بالتأكيد يا عزيزي . من كان يظن أننا سنلتقي هنا ؟ لا شك أنك تعرف الآنسة "**نان**" !

ودهش "**ساترويت**" . الآنسة "**نان**" ! الممثلة القديرة المعروفة ؟ لا عجب إذن أن

تكون رائعة الصوت ، بارعة الإلقاء . أليست "**روزينا نان**" أشهر ممثلة في "**إنجلترا**" ؟

وعاد السيد "**فايز**" يقول وهو يقدم الرجل الآخر الجالس على يسارها :

– السيد "**جود**" ، زوج الآنسة "**نان**" .

وكانت "**روزينا نان**" قد تزوجت كثيرا . ولاشك أن هذا السيد "**جود**" هو الزوج الأخير .

وكان الزوج مهتما بتقديم الطعام إلى زوجته في عناية وشغف ذلك أن المعروف أن الآنسة "**نان**" من اللواتي يشغفن بالطعام ، وفي هذا قال "**فايز**" :

– إنها تهيم بألوان الطعام . بل إنها تعيش فقط لتأكل إنني في أحيان كثيرة أذكر لها لونا محببا من الطعام قبيل قيامها بدور معين ، فإذا هي تقوم بالدور كأروع ما يكون .

وسمع الرجلان الآنسة "**نان**" وهي تقول لزوجها :

– ولكن أين الكافيار ؟ إنني لم أره منذ دخلنا هنا .

– إنك توشكين على الجلوس فوقه . فإنه وراءك على المقعد !

فتناولته بسرعة في ابتهاج وهي تقول :

– أوه ! إنك تعرف يا عزيزي أنني كثيرة النسيان والشرود . إنني قلما أعرف أين وضعت أشيائي !

– نعم . كما وضعت ذات يوم مجموعة لآلئك في كيس إسفنجة الحمام . وما أكثر البرقيات والمكالمات التليفونية التي تبادلتها مع الفندق حتى استرددناها .

فقالت الآنسة "**نان**" بصوت حالم :

– على كل حال كانت هذه اللآلىء مؤمّنا عليها . ولكن جوهرتي "**الأوبال**" الزمردية لم أؤمّن عليها للأسف .

وفجأة أحس السيد "**ساترويت**" أنه ، مرة أخرى ، يعيش في إحدى مسرحيات الحياة ، وأنه ، مع السيد "**كوين**" ، يقومان بدورهما فيها . ومن ثم شعر أن كلمة

"**الأوبال**" هي مفتاح دوره ، فانحنى إلى الأمام وقال :

– جوهرتك "**الأوبال**" يا آنسة "**نان**" ؟

– جوهرتي "**الأوبال**" . لقد سرقت مني كما تعلم . ولم أستردها بعد .

– أوه ! حدثينا بهذا الموضوع يا آنسة "**نان**" .

– آه ! نعم . لقد ولدت في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، ولهذا فإن من الفأل الحسن أن أتزين بجواهر "**الأوبال**" . ومن ثم اشتريت جوهرة مفرطحة على شكل القلب من أندر الأنواع وأصفاها . ولشد ما كانت بهجتي حين استطعت أن أظفر بها بعد الصبر الطويل .

وتنهدت في عمق ، وكان الجميع ينصتون إليها مبهورين بإلقائها وجمال نبرات صوتها . وبعد برهة من الصمت ، أردفت تقول :

– وسرق هذه الجوهرة النادرة مني شاب يُدعى "**أليك جيرارد**" ، كان يكتب الروايات المسرحية .

فقال السيد "**فايز**" :

– وهي روايات جيدة فعلا . وقد كدت أن أخرج إحداها قبل الحادث .

وقالت الآنسة "**نان**" :

– نعم . كان فيها دور رائع لي . وكان اسمها "**أولاد راشيل**" . وقد جاء إلى غرفتي بالمسرح ليتبادل معي الحديث بشأنها . وكان شابا لطيفا خجولا، وسيم الوجه، في عينيه نظرات شاردة تنم عن روح شاعرية وخيال واسع . مسكين وكانت الجوهرة موضوعة في علبتها على منضدة الزينة .

وكان هو خبيرا في هذا النوع من الجواهر؛ لأنه سافر ذات يوم إلى "**أستراليا**" . ومن ثم تناولها وفحصها في الضوء ، ويبدو أنه نسي نفسه ووضعها في جيبه . ولما انصرف ولم أجدها ، أبلغت رجال البوليس ، وكان لهذا الحادث ضجة كبيرة في مختلف الصحف . حتى أن السيد "**فايز**" قال إن هذا الحادث كان أوسع دعاية مجانية حدثت لي !

وقال "**فايز**" :

– نعم . نعم . كان دعاية رائعة .

– ووجدت علبة الجوهرة فارغة في مسكنه وثبت أنه كان يعاني أزمة مالية عنيفة، ومع ذلك فقد ثبت أيضا أنه وضع لحسابه في البنك مبلغا كبيرا وقد زعم هو أنه لابد قد وضع العلبة في جيبه سهوا ، وأن صديقا لعب على جواد رابح لحسابه ووضع الأرباح في رصيده بالبنك . ولكنه لم يستطع أن يذكر اسم هذا الصديق ، أو أن يدلي بمحل إقامته . وهكذا صدر الحكم عليه بالسجن خمسة أعوام أمضى منها الآن ثمانية أشهر .

وبعد أن ساد الصمت برهة وجيزة ، قالت الآنسة "**نان**" فجأة :

– أين علبة الخوخ المحفوظ يا "**هنري**" ؟

فقال زوجها "**هنري جود**" :

– إنها في حقيبة حاجاتك .

وتناولت الممثلة الكبيرة حقيبة حاجاتها وراحت تفرغ ما فيها من ألوان وأصناف حتى عثرت على علبة الخوخ المحفوظ وكان بين الأشياء التي أفرغتها من الحقيبة على الطاولة صندوق هندي مسحور ، قالت عنه حينما تناوله القاضي الهندي السيد "**توملينسون**" وراح يفحصه :

– هذا صندوق من النوع المسحور . من أين جئت به يا آنسة "**نان**" ؟

– هدية من أحد المعجبين ! وأنا أضعه دائما على منضدة الزينة في غرفتي بالمسرح رغم أنه ليس رائع الشكل .

فضحك السيد "**توملينسون**" وقال :

– ربما لا يكون جميلا ، ولكنني أراهن أنك لا تعرفين سره . هل تحبين أن أطلعك على طريقته السرية ؟

وقال الجميع :

– نعم . نعم . نريد أن نرى .

وكان الصندوق في أعلاه مفتاحان صغيران كأنهما حليتان . فضغط السيد

"**توملينسون**" على أحد المفتاحين ، فانفتح الصندوق ، ثم طلب من أحد الحاضرين أن يضع قطعة جبن من النوع المغلف فيه . ثم أغلق الصندوق ، وضغط على المفتاح الآخر ، ثم عاد وفتح الصندوق ، وإذا قطعة الجبن تختفي .

وسرت همهمة الدهشة من الجميع ، ولكن السيد "**توملينسون**" أغلق الصندوق ثم جعله في وضع مقلوب ، وضغط على مفتاح آخر جانبي يشبه حلية منقوشة، ثم أعاده إلى وضعه الصحيح وفتحه .

وشهق الجميع .

لقد رأوا مع قطعة الجبن ، جوهرة من حجر "**الأوبال**" الأزرق مفرطحة على هيئة القلب . وصاحت الآنسة "**نان**" في دهشة :

– جوهرتي الغالية . يا إلهي ! يا للهول !

وتنحنح زوجها "**هنري جود**" وقال مضطربًا :

– لا شك أنك وضعتها في الصندوق السحري سهوا ، وضغطت على المفتاح الثاني فاختفت دون أن تعلمي .

– نعم . نعم . لا شك في هذا . ولكن المهم أن الشاب "**أليك جيرارد**" لم يسرقها ، أي أنه مسجون الآن ظلماً .

وهنا نهضت "**نوامي كارلتون سميث**" ، وقالت بصوت شاحب :

– أتعرفين من يكون "**أليك جيرارد**" بالنسبة إليَّ ؟ ! إنه خطيبي ، وحبي ، وقلبي، وقد كدت من فرط اليأس أن أنتحر أكثر من مرة .

قالت هذا واندفعت إلى خارج الكوخ باكية ، فلحق بها السيد "**كوين**" والسيد "**ساترويت**" ، وكانت العاصفة الثلجية قد هدأت ، وانقطع سقوط ندف الجليد .

وقال السيد "**كوين**" وهو ينظر إلى السماء الصافية :

– حسنا . أعتقد أنه ينبغي لي أن أنصرف الآن !

فنظرت "**نوامي**" إليه في دهشة وقالت :

– ولكن . ماذا عن خطيبي "**جيرارد**" ؟

– لا شك أنه سيطلق سراحه بالتلغراف اليوم و . . .

– وماذا ؟

– ولا شك أن الآنسة "**نان**" ستعرف كيف تعوضه أدبيا وماديا .

ولما تحرك بعيدا ، قال السيد "**ساترويت**" :

– إلى أين هو ذاهب ؟

فقالت "**نوامي**" بصوت غريب .

– من حيث جاء على ما أظن !

– ولكن ليس هناك طريق مفتوح . لقد قلت بنفسك إننا في آخر الدنيا .

وهزت "**نوامي**" كتفيها ، فقال لها "**ساترويت**" :

– والآن . هل ستسمحين لي بالركوب معك في رحلة العودة ؟

وهنا ، ولأول مرة ، أشرق وجهها سرورا وابتهاجا وقالت :

– بالتأكيد ، بالتأكيد . فأنا الآن واثقة بأننا سنصل إلى الفندق بلا أحداث مفاجئة في الطريق .

- 4 -

العاشقان

كانت الصداقة بين الرجلين غريبة ، فالعميد رجل ريفي بسيط . هوايته الوحيدة في الحياة هي الرياضة .. والأسابيع القليلة التي يقيمها في "**لندن**" ، كان يقضيها هناك على كره منه . أما السيد "**ساترويت**" ، فكان رجلا حضريا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وحجة في الطهو على الطريقة الفرنسية ، وخبيرا بأزياء النساء، ومن أعلم الناس بفضائح المجتمع .. وهوايته ملاحظة طبائع البشر ، والوقوف مما يجري على مسرح الحياة موقف المتفرج .

ومن هذا يتبين أنه لم تكن هناك أية صفة مشتركة يمكن أن تجمع بين الرجلين؛ لأن العميد لم يكن يهتم بأمور الآخرين . ولكن أواصر الصداقة توثقت بينهما

أصلا؛ لأن والديهما كانا صديقين، ولأنهما يعرفان نفس الأشخاص، ويشعران بنفس الأحاسيس حيال أغنياء الحرب .

كانت الساعة السابعة والنصف تقريبا ، وكان الرجلان يجلسان في مكتب العميد "**ميلروز**" . وقد راح هذا الأخير يصف رحلات الصيد التي قام بها في الشتاء المنصرم ، وأخذ "**ساترويت**" يصغي إليه في أدب رغم أن معرفته بالجياد لم تكن تتجاوز زيارة حظائرها في بعض القصور الريفية القديمة التي لا تزال تحتفظ بحظائر للجياد .

وفجأة رن جرس التليفون ، فنهض العميد من مقعده ، واقترب من المكتب وتناول السماعة ، وهتف :

– آلو .. نعم ، أنا العميد "**ميلروز**" .. ماذا حدث ؟

وتغيرت سحنته على الفور ، وتصلبت عضلات وجهه .. وبدأ يتكلم بلهجة مدير الشرطة .. لا بلهجة الرجل الرياضي .

– حسنا يا "**كرتس**" .. سأحضر فورا .

ووضع السماعة ، وتحوّل إلى ضيفه وقال :

– لقد وُجِد السيد "**جيمس دوايتون**" مقتولا في مكتبه .

فهتف "**ساترويت**" وقد أثاره النبأ :

– ماذا ؟!

– يجب أن أذهب إلى (الدوراي) في الحال .. هل تود مرافقتي ؟

فقال "**ساترويت**" بعد تردد قصير :

– إذا لم يكن في ذلك مضايقة لك .

– كلا .. ليس ثمة مضايقة .. الذي حدثني الآن هو المفتش "**كيرتس**" .. إنه رجل أمين ومخلص .. ولكنه يفتقر إلى الذكاء . سيكون من بواعث سروري أن تأتي معي يا "**ساترويت**" .. فإنني أشعر بأن أمامنا جريمة بالغة التعقيد .

– هل قبضوا على القاتل ؟

فأجاب العميد في إيجاز :

- لا ..

وأدرك "**ساترويت**" بحسه المرهف أن هذا الجواب الموجز يخالطه شيء من التحفظ ، فبدأ يسترجع في ذهنه معلوماته عن آل "**دوايتون**" ..

كان يعلم أن السيد "**جيمس دوايتون**" رجل متقدم في السن ، يناهز الستين من عمره ، متعجرف ، حاد الطباع ، شحيح إلى أقصى حد .. وهي صفات خليقة بأن تجلب له عداوة الكثيرين ..

وانتقلت أفكاره إلى السيدة "**دوايتون**" .. فتخيلها كما رآها ، امرأة في مقتبل العمر ، ممشوقة القوام ، على جانب كبير من الجمال .. وتذكر الشائعات الغريبة المختلفة التي تلوكها الألسن عنها ..

- لابد أن العميد "**ميلروز**" قد سمع هذه الشائعات ، ولعل ذلك هو سبب وجومه وتحفظه .

وبعد نحو خمس دقائق ، كان "**ساترويت**" يجلس بجوار العميد في سيارة هذا الأخير .

وتحركت السيارة ، وبدأت رحلتها في ظلام الليل ..

وكان العميد رجلا صموتا ، وقد قطعت السيارة نحو ثلاثة كيلو مترات قبل أن يتكلم ..

قال فجأة :

- أنت تعرفهما بالتأكيد .

- تعني "**دوايتون**" وزوجته ؟ إنني أعرف كل شيء عنهما . والواقع أنه لم يكن هناك إنسان لا يعرف "**ساترويت**" كل شيء عنه .

استطرد قائلا :

- إنني قابلته مرة ، وقابلتها مرارا .

- إنها امرأة جميلة .

- بل إنها فاتنة .

- أتظن ذلك ؟

فقال "**ساترويت**" :

– إنها من طراز نساء عصر النهضة .. لقد رأيتها في حفل خيري في الربيع الماضي ، كانت تمثل دورا في مسرحية ، فبهرتني . إنها تختلف تماما عن نساء هذا العصر ، وقد ذكرتني بالحسناوات في قصور دوقات البندقية ، بل لقد ذكرتني بـ"**لوكويس**" .

وهنا انحرفت السيارة فجأة ، فاعتدل " **ساترويت**" في مقعده .. وأدهشه أنه فكر في "**لوكويس بورجيا**" ونطق باسمها ، وسأل :

– هل مات "**دوايتون**" مسموما ؟

فنظر إليه العميد من ركن عينه بشيء من الدهشة والفضول وقال :

– لماذا ألقيت هذا السؤال ؟

– لا أعلم ، إنه مجرد سؤال .

– لا ، إنه لم يمت مسموما ، وإنما أصيب بضربة في الرأس .

– بآلة حادة ؟

– لا تتكلم كرجل البوليس في القصص ، لقد أهوى بعضهم على رأسه بتمثال من البرنز .

ولاذ "**ساترويت**" بالصمت .

فقال العميد بعد صمت قصير :

– هل تعرف شيئا عن شاب يدعى "**بول ديلانجوا**" ؟

– نعم .. إنه شاب وسيم جداً ..

– أظن أن هذا ما تقوله النساء عنه .

– ألا تحبه ؟

– نعم .

– ظننتك تحبه ، فإنه يجيد ركوب الخيل ..

– نعم كأي مهرج أجنبي ..

فأشاح "**ساترويت**" بوجهه ، ليخفي الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه ..

كان يعرف عن "**ميلروز**" أنه بريطاني قح ..

سأل :

– وماذا جاء به إلى هذه المنطقة ؟

فأجاب العميد :

– إنه نزل ضيفا على آل "**دوايتون**" .. ويقال إن السيد "**جيمس**" طرده منذ نحو أسبوع .

– لماذا ؟

– أظن أنه اكتشف أنه يغازل زوجته ... ما هذا بحق السماء ؟!

وانحرفت السيارة بعنف ، واصطدمت بشيء .

قال العميد :

– ما أكثر المنحنيات الخطرة في طرق هذه البلاد ! ولكن كان ينبغي على هذا الرجل أن يستخدم بوق سيارته .. فنحن نسير في الطريق الرئيسي وهو قادم من طريق جانبي .. على كل حال أعتقد أننا أعطبناه أكثر مما أعطبنا .

قال ذلك وغادر السيارة ، وفي نفس اللحظة ، غادر السيارة الأخرى رجل آخر لم يتبين "**ساترويت**" وجهه ، ولكنه سمعه يقول :

– أنا المخطىء .. والواقع أنني لا أعرف هذه المنطقة جيدا .. ولا توجد هنا أية علامة تشير إلى وجود طريق رئيسي .

فقبل العميد اعتذار الرجل ودار معه حول سيارته ليرى ما أصابها من تلف ، وكان برفقة الرجل سائق راح بدوره يفحص السيارة ، ودار بين الثلاثة حديث فني انتهى بأن قال الرجل :

– أظن أن إصلاح العطب لن يستغرق أقل من نصف الساعة ... ولكن لا ينبغي أن يعطلك ذلك عن مواصلة رحلتك .. ويسرني أن سيارتك لم تصب بتلف يذكر.

فقال العميد :

– الحقيقة أن ..

ولكنه لم يتم عبارته .. فقد رأى "**ساترويت**" يثب من مكانه في السيارة ويقبل نحوه وهو يقول بانفعال واضح :

– لقد عرفتك من صوتك .. يا لها من مصادفة عجيبة ! ..

ثم التفت إلى العميد وقال :

– هذا السيد "**هارلي كوين**" الذي طالما حدثتك عنه يا "**ميلروز**" .

ولم يتذكر العميد أن "**ساترويت**" حدثه عن "**هارلي كوين**" .. ولكنه أومأ في أدب .

قال "**ساترويت**" :

– أظن أنه لا ينبغي أن نتركك هنا على قارعة الطريق .. تعال معنا .. إن في السيارة متسعا لك .. أليس كذلك يا "**ميلروز**" ؟

فأجاب العميد بشيء من الفتور :

– بلى .. ولكن هل نسيت يا "**ساترويت**" ؟

فجمد "**ساترويت**" في مكانه لحظة ، ثم لمعت عيناه ، وتواثبت إلى ذهنه آلاف الخواطر ، وهتف قائلا :

– كلا كان يجب أن أعلم هذا .. كان يجب أن أعلم أن لقاءنا هنا الليلة على مفترق الطرق ليس وليد المصادفات .

فنظر العميد إلى صديقه في دهشة ، وأمسك هذا بساعده وقال :

– هل تذكر ما حدثتك به عن صديقنا "**ديريك كابل**" وعن سبب انتحاره الذي لم يفطن إليه أحد ؟ إن السيد "**كوين**" هو الذي حل هذا اللغز ، حل ألغازا كثيرة أخرى بعد ذلك .

إنه يرشدك إلى أشياء موجودة فعلا ولكنك لا تراها .. الحق أنه مدهش .

فقال السيد "**كوين**" وهو يبتسم :

– إنك تُخجل تواضعي يا عزيزي "**ساترويت**" ، وعلى قدر ما أذكر ، فإنك أنت الذي حللت تلك الألغاز لا أنا .

– إنها حُلت ؛ لأنك كنت موجودا .

فسعل العميد وقال :

– أظن أننا يجب ألا نضيع من الوقت أكثر مما أضعنا .. هلم بنا .

قال ذلك وجلس أمام عجلة القيادة .

كان يشعر بالامتعاض من وجود هذا الغريب الذي فرضته عليه حماسة "**ساترويت**" . ولكن لم يكن بوسعه أن يجد سببا وجيها للامتعاض فضلا عن أنه يريد الوصول إلى (الدرواي) بأسرع ما يستطيع .

وجلس السيد "**كوين**" بين "**ساترويت**" والعميد ، وقال هذا الأخير في محاولة لإخفاء امتعاضه :

– إذن فالجرائم تثير اهتمامك يا سيد "**كوين**" ؟

فأجاب "**كوين**" :

– كلا .. إنني لا أهتم بالجرائم ذاتها .

– بماذا إذن ؟

فابتسم "**كوين**" وقال :

– دعِنا نسأل السيد "**ساترويت**" .. فإنه فطن وقوي الملاحظة .

فقال "**ساترويت**" ببطء :

– أظن ، وقد أكون مخطئا ، أن ما يهم السيد "**كوين**" هم العشاق .

وعلى الرغم من أنه نطق بكلمة (العشاق) كما لو كان يضعها بين قوسين ، فقد احمرَّ وجهه خجلا ..

وقال العميد :

– أحقًّا ؟

ونظر إلى السيد "**كوين**" من ركن عينه .. ووجده شابا عاديا ، أسمر البشرة قليلا .. ولكنه ليس أجنبيا بحال .

وقال "**ساترويت**" يحدث "**كوين**" :

– والآن .. يجب أن أحدثك عن القضية التي نحن بصددها ..

وتكلم طوال عشر دقائق .. وتملكته نشوة الإحساس بالقوة ..

صحيح أنه كان يقف من الحياة موقف المتفرج . ولكنه كان لبقا ذلق اللسان، فاستطاع أن يرسم صورة رائعة لـ"**لورا دوايتون**" بشعرها الأحمر وعينيها الفاتنتين.. و "**بول ديلانجوا**" الوسيم معبود النساء ، ومن ورائهما قصر "الدرواي" العتيد .. الذي يرجع تاريخه إلى عهد الملك "**هنري**" السابع .

وفي عبارات موجزة ، رسم صورة أخرى للسيد "**جيمس دوايتون**" وأسرته التي ظلت طوال عدة قرون تمتص دماء المزارعين ، وتملأ خزائنها بالمال ، حتى لا يعرف أفرادها ، وذويها معنى الحاجة مهما ساءت الأحوال .

ثم صمت ..

كان واثقا بأنه أحسن أداء المهمة ، وأثار اهتمام السامعين ..

صمت وانتظر كلمة ثناء ، وجاء الثناء على لسان السيد "**كوين**" .

قال :

– أنت فنان يا سيد "**ساترويت**" .

◆◆◆◆◆

ووقفت السيارة بباب القصر ، وهرول أحد رجال الشرطة لاستقبالهم .

قال يحدث العميد :

– طاب مساؤك يا سيدي .. المفتش "**كيرتس**" في قاعة المكتبة .

– حسنا ..

وارتقى "**ميلروز**" درج السلم ، وتبعه زميلاه .

وفي ردهة القصر ، قابلهم كبير الخدم وهو رجل متقدم في السن فحيّاه "**ميلروز**" قائلا :

– طاب مساؤك يا "**مايلز**" .. حادث مؤسف حقًّا .

فأجاب الرجل بصوت متهدج :

– نعم يا سيدي .. وأنا لا أستطيع أن أصدق ما حدث .. لا أستطيع أن أصدق

أن هناك من طوعت له نفسه أن يقتل السيد .

– سنتحدث في ذلك يا "**مايلز**" .

ومضى إلى قاعة المكتبة ، فاستقبله المفتش باحترام وقال :

– حادث سيئ يا سيدي .. إنني تركت كل شيء مكانه .. ولم أجد على أداة الجريمة أي أثر لبصمات الأصابع .. وذلك دليل على أن القاتل خطط لجريمته بحرص وحذر .

ونظر "**ساترويت**" إلى الرجل المقوس أمام المكتب .

كان من الواضح أنه تلقى ضربة من الخلف هشمت الجمجمة ..

وكانت أداة الجريمة ملقاة على الأرض .. وهي تمثال من البرنز ، يربو ارتفاعه على نصف متر ..

وانحنى "**ساترويت**" فوق التمثال ، وتأمله في فضول وتمتم قائلا :

– إنه تمثال (فينوس) ..

وقال المفتش :

– كانت النوافذ كلها مغلقة بالمزلاج من الداخل .

فقال العميد :

– معنى ذلك أنها جريمة داخلية ..

وكان القتيل مرتديا ثياب (الجولف) ورأى العميد حقيبة الجولف ملقاة على إحدى الأرائك .

قال المفتش :

– كان قد عاد لتوه من حلبة الجولف ، وكانت الساعة الخامسة والربع ، فطلب أن يحضروا له الشاي في قاعة المكتبة ، ثم استدعى خادمه الخاص ، وطلب إليه أن يأتي بحذاء خفيف وكان الخادم الخاص – فيما نعلم – هو آخر من رآه على قيد الحياة .

فأطرق "**ميلروز**" برأسه ، وفكر لحظة ، ثم نظر إلى المكتب .

كانت بعض التحف والأدوات على المكتب مقلوبة ، أو محطمة ..

ورأى العميد في وسط المكتب ساعة كبيرة مقلوبة على ظهرها .

قال المفتش :

– من حسن الحظ أن الساعة انقلبت وتحطمت وتوقفت عقاربها عند الساعة السادسة والنصف .. وهذا دليل واضح على أن الجريمة ارتكبت في هذا الوقت..

فقال العميد :

– نعم أيها المفتش .. إنه دليل واضح بل وشديد الوضوح إلى حد يثير الريبة.

وتحوّل إلى السيد "**كوين**" كأنما ليستطلع رأيه فقال هذا :

– هل تعني أن الساعات لا تسقط هكذا ؟

فنظر إليه العميد بحدة . ثم نظر إلى الساعة ، ومد يده وأقام الساعة على قوائمها. وضرب سطح المكتب بقبضة يده ضربة قوية ، فاهتزت الساعة بعنف ولكنها لم تسقط ..

وأعاد العميد الكرة .. فاهتزت الساعة ، ثم انقلبت على ظهرها ببطء

وسأل :

– متى اكتشفت الجريمة ؟

فأجاب المفتش :

– حوالي الساعة السابعة يا سيدي

– ومن الذي اكتشفها ؟

– كبير الخدم .

– أحضروه .. أريد أن أتحدث إليه الآن . وبهذه المناسبة .. أين السيدة "**دوايتون**" ؟

– في مخدعها يا سيدي ، وتقول وصيفتها إنها في حالة انهيار تام . ولا تستطيع مقابلة أحد .

فأطرق "**ميلروز**" برأسه ، وانطلق المفتش "**كيرتس**" للبحث عن الخادم الخاص..

ولاحظ "**ساترويت**" ، أن السيد "**كوين**" ينظر إلى المدفأة ، وعلى وجهه دلائل التفكير ، فحذا حذوه ، ونظر إلى المدفأة وبهر عينيه وهج الكتل الخشبية المحترقة

لكنه لمح شيئا يتألق عند حافة المدفأة ، فانحنى والتقطه وتأمله .. ووجد أنه قطعة صغيرة مقوسة من الزجاج ..

وفي هذه اللحظة دخل كبير الخدم وقال بصوت متهدج :

– هل طلبتني يا سيدي ؟

فوضع "**ساترويت**" قطعة الزجاج في جيبه ، ونظر إلى الباب حيث وقف الخادم العجوز وقال العميد في رفق :

– اجلس يا "**مايلز**" .. إنك ترتجف من قمة رأسك إلى أخمص قدميك .. كان الحادث صدمة قاسية لك بطبيعة الحال .

– نعم يا سيدي ..

– إنني لن أستبقيك طويلا يا "**مايلز**" .. قيل لي إن سيدك عاد قبل الساعة الخامسة بقليل فهل هذا صحيح ؟

– نعم يا سيدي . وقد طلب موافاته بالشاي هنا .. وعندما عدت لآخذ أدوات الشاي ، طلب إلي أن أبعث إليه "**جنجز**" .. خادمه الخاص ..

– كم كانت الساعة وقتئذ ؟

– كانت حوالي السادسة وعشر دقائق .

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– أرسلت إلى "**جنجز**" من ينبئه بأن السيد يطلبه ، وفي الساعة السابعة جئت إلى هنا لكي أغلق النوافذ وأسدل الستائر فرأيت ...

فقاطعه "**ميلروز**" قائلا :

– نعم .. نعم .. لا ضرورة لأن تصف ذلك مرة أخرى .. إنك لم تمس الجثة ، ولم تعبث بشيء .. أليس كذلك ؟

– بلى يا سيدي .. وقد غادرت الغرفة بأقصى سرعة لكي أتصل بالبوليس ؟

– ثم ؟

– ثم طلبت إلى "**جانيت**" ، وصيفة السيدة – أن تنهي النبأ إلى سيدتها .

– ألم تر السيدة طوال هذا المساء ؟

ألقى العميد هذا السؤال ببساطة ، ولكن "**ساترويت**" لاحظ في صوته نبرة قلق لاتدركها إلا الأذن المرهفة .

أجاب كبير الخدم :

– إنني لم أتحدث إليها يا سيدي ؛ لأنها لزمت مخدعها بعد المساء .

فقال العميد بسرعة ، وبصوت حاد :

– ألم ترها قبلها ؟

ولاحظ الجميع أن كبير الخدم قد تردد قبل أن يجيب .

– إنني .. إنني لمحتها حين هبطت السلم .

– هل كانت في طريقها إلى هنا ؟

وحبس "**ساترويت**" أنفاسه .

قال كبير الخدم :

– أظن .. أظن ذلك يا سيدي .

– كم كانت الساعة وقتئذ ؟

وساد سكون رهيب ، كان يمكن خلاله أن تسمع صوت سقوط دبوس .

وتساءل "**ساترويت**" .. ترى هل أدرك الرجل ما وراء هذا السؤال ؟ وهل عرف النتائج الخطيرة التي ستترتب على جوابه .

قال كبير الخدم :

– كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف يا سيدي ..

فتنهد العميد "**ميلروز**" وقال :

– حسنا .. هذا يكفي .. وشكرا لك يا "**مايلز**" .. أرجوك أن ترسل "**جنجز**" لمقابلتي .

◆◆◆◆◆

وجاء "**جنجز**" على الفور ..

كان رجلا غائص الصدغين ، يمشي بخفة القط ، ، وفي مظهره وحركاته غموض

ودهاء ..

وقال "**ساترويت**" لنفسه :

– هذا الرجل من الطراز الذي يمكن أن يقتل سيده إذا وثق بأن أمره لن يفتضح.

◆◆◆◆◆

وأصغى "**ساترويت**" باهتمام إلى أجوبة "**جنجز**" عن أسئلة العميد وكانت أجوبة صريحة ، وصادقة ، وليس فيها لف أو دوران .

قال إنه أحضر لسيده حذاء خفيفا ، وأخذ حذاء الجولف لتنظيفه ..

– وماذا فعلت بعد ذلك يا "**جنجز**" ؟

– عدت إلى جناح الخدم .

– كم كانت الساعة عندما تركت سيدك ؟

– كانت حوالي السادسة والربع ..

– وأين كُنت في الساعة السادسة والنصف يا "**جنجز**" ؟

– في جناح الخدم يا سيدي .

– حسناً ، يمكنك أن تنصرف الآن .

◆◆◆◆◆

وانتظر العميد حتى غادر الخادم الغرفة ثم نظر إلى "**كيرتس**" متسائلا .. فقال هذا :

– إنه لم يكذب يا سيدي ، لقد تحققت من صدق أقواله ، وثبت لي أنه كان في جناح الخدم من السادسة وعشرين دقيقة حتى السابعة .

فقال العميد بشيء من الأسف :

– هو بريء إذن ، أضف إلى ذلك أنه ليس لديه دافع لارتكاب الجريمة .

وفي هذه اللحظة ، طرق باب الغرفة فنظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم البعض ، وقال العميد :

– ادخل ..

وفتح الباب ، ودخلت الوصيفة وعلى وجهها دلائل الذعر ..

– لقد علمت سيدتي أن العميد "**ميلروز**" موجود هنا . وهي تود مقابلته.

فقال العميد :

– سأذهب إليها فورا .. هل لك أن ترشديني إلى الطرق ..

ولكن يدا امتدت في هذه اللحظة ، ونحت الوصيفة جانبا ، ورأى الرجال الثلاثة السيدة "**لورا دوايتون**" على عتبة الباب .. أشبه بزائرة من عالم آخر .

كانت ترتدي غلالة زرقاء ملتصقة بجسدها وشعرها الأحمر مفروق من الوسط ومعقود خلف رأسها .. وقد توكأت بأحد ساعديها العاريين على الباب ، بينما تدلى من يدها الأخرى كتاب .

ونظر إليها "**ساترويت**" مبهورا ، وقال لنفسه ، ما أشبهها بالسيدة العذراء في بعض اللوحات الإيطالية القديمة!

◆◆◆◆◆

وقفت السيدة بالباب تترنح يمينا ويسارا ، فأسرع العميد نحوها .

قالت :

– لقد جئت لكي أقول لك .. لكي أقول لك ..

فقال "**ميلروز**" وهو يحيطها بساعده حتى لا تسقط :

– مهلا يا سيدة "**دوايتون**" .. مهلا ..

واجتاز بها المكان ، وقادها إلى غرفة صغيرة ملحقة بقاعة المكتبة ، وتبعهما "**كوين**" و "**ساترويت**" .

وتهالكت السيدة على أحد المقاعد ، وأغمضت عينيها .. بينما وقف الرجال الثلاثة يرقبونها .

ثم فجأة رفعت رأسها وفتحت عينيها ، وقالت بكل هدوء :

– إنني قتلته .. لقد جئت لكي أقول لك إنني قتلته ..

فساد صمت مؤلم استمر نحو دقيقة . وأحس " **ساترويت** " كأن قلبه قد فقد إحدى نبضاته .

وأخيرا قال "**ميلروز**" :

– إنني أعلم أن الصدمة كانت شديدة الوطأة يا سيدة "**دوايتون**" ولا أظن أنك تفقهين ما تقولين . .

وقال "**ساترويت**" لنفسه وقد تعلقت عيناه بشفتيها :

– ترى هل ستتراجع الآن . . بينما الفرصة سانحة ؟؟

◆◆◆◆◆

قالت السيدة "**دوايتون**" في هدوء :

– إنني أعرف جيدا ما أقول . . أنا التي قتلته .

فشهق اثنان من الرجال ، أما الثالث فإنه ظل على هدوئه .

وانحنت "**لورا دوايتون**" إلى الأمام وقالت :

– ألا تفهمني ؟ . . إنني جئت إلى هنا ، وأطلقت عليه الرصاص . . إنني أعترف بذلك .

وسقط الكتاب الذي كان بيدها ، وسقط من بين صفحاته خنجر صغير ذو مقبض مرصع ، من نوع الخناجر التي تستخدم في قطع الورق ، فتناوله "**ساترويت**" ووضعه على المائدة وهو يقول لنفسه :

– هذه لعبة خطرة . . يمكن أن تقتل إنسانا .

واستطردت "**لورا دوايتون**" قائلة في ضجر ونفاذ صبر :

– حسنًا . . ماذا ستفعل الآن ؟ ألا تقبض علي ؟

ووجد "**ميلروز**" صوته بصعوبة . .

قال :

– إن ما ذكرته لي الآن خطير للغاية يا سيدة "**دوايتون**" وإني أرجوك أن تعودي إلى مخدعك حتى أتخذ بعض الإجراءات الضرورية .

فنهضت ، وسارت إلى الباب في هدوء وثبات ..

وقبل أن تصل إليه سألها السيد "**كوين**" :

– وماذا فعلت بالمسدس يا سيدة "**دوايتون**" ؟

فدارت على عقبيها ، وبدا التردد على وجهها .

وقالت :

– إنني .. إنني ألقيت به على أرض الغرفة .. كلا .. أظن أنني ألقيت به من النافذة .. والواقع أنني لا أذكر الآن .. ولكن ما أهمية ذلك ؟ إنني لم أكن أعرف ما أنا فاعلة ..

– نعم .. ذلك لا أهمية له .

فنظرت إليه بمزيج من الحيرة والقلق ، ثم رفعت رأسها بحدة ، وغادرت الغرفة بعظمة ..

وأسرع "**ساترويت**" وراءها .. فقد خشي أن تنهار وتسقط على الأرض في أية لحظة ..

ولكنها مضت في طريقها ، وراحت تصعد درج السلم في ثبات ، دون أن يبدو عليها أي أثر للضعف أو التخاذل .. وكانت الوصيفة تنتظر سيدتها في أسفل الدرج فقال لها "**ساترويت**" :

– اسهري على سيدتك جيدا ..

فقالت الوصيفة وهي تتأهب لارتقاء درج السلم في أثر سيدتها :

– سأفعل يا سيدي .. ولكن حدثني بربك .. هل يرتابون فيه ؟

– فيمن ؟

– "**جنجز**" يا سيدي .. إنه إنسان طيب لا يؤذي ذبابة ..

– "**جنجز**" ؟ لا .. لا أحد يرتاب فيه .. اذهبي أنت واسهري على سيدتك .

وأسرعت الفتاة في أثر سيدتها ، وعاد "**ساترويت**" إلى الغرفة . وسمع "**ميلروز**" يقول :

– الحق أنني في أشد الحيرة .. لا بد أن وراء الأكمة ما وراءها .. إنها تتكلم

كإحدى البطلات الحمقاوات اللائي تزخرن بهن الروايات الرخيصة .

فقالت "**ساترويت**" :

– نعم إن ما سمعنا الآن لا يحدث إلا على المسارح .

فقال "**كوين**" وهو ينظر إلى "**ساترويت**" :

– أرى أنك شغوف بالمواقف الدرامية .. وتقدر التمثيل الجيد .

فنظر إليه "**ساترويت**" بحدة ..

وفي هذه اللحظة ، طرق آذانهم صوت بعيد ..

فقال "**ميلروز**" :

– يُخيّل إليَّ أنه صوت رصاصة .. أطلقها أحد حراس الغابة .. ومن المحتمل أن تكون السيدة "**دوايتون**" قد سمعت صوتا كهذا .. فجاءت لاستطلاع الأمر وتبادر إلى ذهنها أن .. وقبل أن يتم عبارته ، فتح الباب ، وقال كبير الخدم :

– السيد "**ديلانجوا**" يا سيدي .

– من ؟

– السيد "**ديلانجوا**" .. إنه جاء الآن ويود التحدث إليك .

فاعتدل العميد في مقعده وقال :

– دعه يدخل .

ودخل "**بول ديلانجوا**" ..

كان في مظهره وحركاته شيء (غير بريطاني) ، كما سبق أن قال "**ميلروز**" : فهو رشيق الحركة ، أسمر البشرة، وسيم الطلعة .. يُخيّل إلى الناظر إليه أنه عاشق من عصر النهضة ..

كان يحيط به جو شبيه بذلك الذي يحيط بـ"**نورا دوايتون**" ..

قال الشاب وهو يحني قامته بحركة مسرحية :

– طاب مساؤكم أيها السادة .

فقال "**ميلروز**" بحدة :

– إنني لا أعرف ماذا تريد يا سيد "**ديلانجوا**" . ولكن إذا كان ما تريده لا صلة له بما نحن بصدده فإن . . .

فقاطعه الشاب بأن قال وهو يضحك :

– على العكس يا سيدي . . إنه وثيق الصلة به .

– ماذا تعني ؟

فقال "**ديلانجوا**" في هدوء :

– أعني أنني جئت لأسلم نفسي بصفتي قاتل السيد "**جيمس دوايتون**" .

– هل تدرك خطورة هذا الاعتراف ؟

– نعم ، أدرك ذلك تماما .

فقال العميد :

– إنني لا أفهم . .

– لا تفهم لماذا أسلم نفسي ؟ قل إنه الندم أو وخز الضمير . . قل ما تريد . . إنني قتلته . . وهذا هو المهم . .

ثم أومأ إلى الخنجر واستطرد قائلا :

– أرى أنك وجدت السلاح الذي ارتكبت به جريمتي . . من سوء الحظ أن السيدة "**دوايتون**" تركته في كتاب كانت تقرأه . .

فقال "**ميلروز**" وهو يتناول الخنجر :

– صبرا لحظة . . هل تريد أن تقول إنك طعنت السيد "**جيمس**" بهذا ؟

– تماما . . إنني دخلت من النافذة ، وتسللت خلفه دون أن يشعر بي أو يراني . . وتم كل شيء بسهولة وسرعة . . وخرجت كما دخلت . .

– من النافذة ؟

– من النافذة بالطبع ؟

– ومتى حدث ذلك ؟

فتردد "**ديلانجوا**" لحظة ثم قال :

– دعني أتذكر . . آه ! نعم . . إنني كنت أتحدث إلى حارس الغابة في الساعة

السادسة والربع .. فقد سمعت دقة ساعة الكنيسة في تلك اللحظة .. لابد أن الساعة كانت حوالي السادسة والنصف عندما ارتكبت الجريمة .

فقال "**ميلروز**" وهو يبتسم :

– تماما أيها الشاب ..لقد ارتكبت الجريمة في الساعة السادسة والنصف.. ولكن لعلك سمعت أنها ارتكبت في ذلك الوقت .. إنها لجريمة عجيبة حقًّا .

– لماذا ؟

– لأن كثيرين اعترفوا بارتكابها ...

فقال الشاب بصوت متهدج :

– من الذي اعترف ؟

– السيدة "**دوايتون**" ..

فضحك الشاب ضحكة مغتصبة وقال :

– لابد أنها كانت تهذي .. لو كنت مكانك ما عولت على كلامها .

فقال "**ميلروز**" :

– لا أظن أنني سأعول على كلامها .. ولكن هناك شيء آخر غريب في أمر هذه الجريمة .

– ما هو ؟

فقال "**ميلروز**" :

– لقد اعترفت السيدة "**دوايتون**" بأنها أطلقت الرصاص على السيد "**جيمس**"، وأنت اعترفت بأنك طعنته بخنجر .. ولكن من حسن حظكما أنه لم يقتل بالرصاص ولم يطعن بخنجر .. لقد هشم رأسه بأداة ثقيلة .

فقال "**ديلانجوا**" :

– يا إلهي ! . ولكن هذا عمل لا تستطيع امرأة أن ..

وصمت ، وعض شفته ، فابتسم "**ميلروز**" وقال :

– هذا موقف قرأت عنه كثيرا .. ولكنه لم يحدث أمامي قبل الآن..

– ماذا تعني ؟ عن أي موقف تتكلم ؟

– موقف شابين أحمقين ، يتهم كل منهما نفسه ، ظنا منه أن الآخر هو الفاعل..

– أظن أننا يجب أن نبدأ من جديد ..

فصاح "**ساترويت**" :

– الخادم ! . لقد حدثتني عنه الوصيفة منذ لحظة ، ولكن لم ألق إليها بالا .. كانت تخشى أن نرتاب في أمره .. لابد أن لديه دافعا نحن نجهله .. ولكنها تعرفه..

فقطب "**ميلروز**" حاجبيه . ودق الجرس ، فجاء كبير الخدم فقال له :

– قل للسيدة "**دوايتون**" أن تتفضل بالحضور .

وساد الصمت إلى أن جاءت السيدة ، التي ما إن رأت "**ديلانجوا**" حتى بهتت واستندت إلى الجدار لكيلا تسقط ، فأسرع "**ميلروز**" إلى نجدتها وهو يقول :

– إن كل شيء على ما يرام يا سيدة "**دوايتون**" ، فلا تنزعجي .

فقالت :

– إنني لا أفهم .. ماذا يفعل السيد "**ديلانجوا**" هنا ؟؟

فهتف "**ديلانجوا**" وهو يقترب منها :

– "**لورا**" .. "**لورا**" .. لماذا فعلت ذلك ؟ لماذا اعترفت ؟ أنا أعرف لماذا .. إنك ظننت أنني الفاعل .. يا لك من ملاك كريم ! .

فسعل العميد "**ميلروز**" .. كان نفوره من المواقف العاطفية لا حد له .. قال :

– اسمحي لي يا سيدة "**دوايتون**" بأن أقول لك إنك والسيد "**ديلانجوا**" قد نجوتما بأعجوبة .. إنه جاء في التو واللحظة ليعترف بأنه الذي ارتكب الجريمة .. لا .. اطمئني .. إنه لم يرتكبها .. ولكننا نريد الآن أن نعرف الحقيقة بلا لف أو دوران.. قال كبير الخدم إنك ذهبت إلى المكتبة في الساعة السادسة والنصف فهل هذا صحيح ؟

فنظرت "**لورا**" إلى "**ديلانجوا**" وأومأ هذا برأسه وقال :

– قولي الحقيقة يا "**لورا**" .. إننا جميعا ننشد الحقيقة .

فتنهدت وقالت :

– سأقول الحقيقة ..

وجلست على المقعد الذي قدمه إليها "**ساترويت**" قائلة :

– إنني هبطت درج السلم ، وفتحت باب المكتبة ورأيت ..

وصمتت ، وازدردت لعابها بصعوبة ، فاقترب منها "**ساترويت**" ، وربت على يدها مطمئنا وقال :

– نعم .. ماذا رأيت ؟

– رأيت زوجي منكباً على المكتب . والدم يسيل من رأسه .. أواه .. يا إلهي!!

ودفنت وجهها بين كفيها .. فقال "**ميلروز**" وهو ينحني فوقها :

– معذرة يا سيدة "**دوايتون**" .. ولكن هل ظننت أن السيد "**ديلانجوا**" أطلق عليه الرصاص ؟

فأطرقت برأسها علامة الإيجاب وقالت في توسل :

– معذرة يا "**بول**" .. إنك قلت مرة إن ..

فقال "**ديلانجوا**" :

– قلت إنني سأقتله رميا بالرصاص كالكلب .. نعم ، أذكر أنني قلت ذلك عندما علمت أنه هددك .

فقال العميد :

– هل أفهم من ذلك يا سيدة "**دوايتون**" ، أنك بعد أن رأيت جثة زوجك ، صعدت إلى غرفتك بدون أن تقولي شيئا ؟ لا ضرورة لأن تذكري الأسباب .. ولكن هل أنت واثقة بأنك لم تمسي الجثة ولم تقتربي من المكتب ؟

فمرت بجسدها رعدة وقالت :

– نعم ، إنني انطلقت إلى غرفتي توا .

– كم كانت الساعة بالضبط حينذاك ؟

– كانت الساعة السادسة والنصف تماما عندما عدت إلى غرفتي .

فقال العميد وهو ينظر إلى زميليه :

– معنى هذا أن السيد "**جيمس**" كان ميتا فعلا في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ومعناه أيضا أن هناك من عبث بعقربي الساعة ، وجعلهما يشيرا إلى السادسة والنصف .. وذلك ما توقعته منذ البداية .. فليس أيسر على الإنسان من تحريك العقربين لكي يشيرا إلى الوقت الذي يريده .. ولكن الغلطة التي وقع فيها من عبث بالعقربين ، هي أنه وضع الساعة على جنبها بهذه الطريقة .

وعلى كل حال ، فإن مجال الاشتباه قد ضاق الآن وتركز في شخصين ، كبير الخدم و "**جنجز**" .. وأنا لا أصدق أبدا أن كبير الخدم قد قتل سيده .. ولكن حدثيني يا سيدة "**دوايتون**" ..هل كان "**جنجز**" يحقد على زوجك لسبب ما؟

فدفنت "**لورا**" وجهها بين كفيها وقالت :

– إنه لم يكن يحقد عليه .. ولكن .. لقد ذكر لي "**جيمس**" صباح اليوم أنه طرد "**جنجز**"؛ لأنه اكتشف أنه يسرقه .

– أحقًّا ، يبدو أننا أمسكنا بطرف الخيط .. إن طرد "**جنجز**" بسبب السرقة. معناه الحرمان من شهادة حسن السير والسلوك .. وهذا أمر خطير بالنسبة إليه.

فقالت "**لورا**" :

– إنني سمعتك تتحدث عن ساعة المكتب .. ولكن هناك أمل في إمكان تحديد وقت ارتكاب الجريمة ، لقد تعود "**جيمس**" أن يضع في جيبه ساعة خاصة للعبة الجولف ، أفلا يحتمل أن تكون هذه الساعة قد تعطلت على أثر إصابته وسقوطه أمام المكتب ؟

فقال العميد ببطء :

– هذه فكرة وجيهة .. ابحث عن هذه الساعة يا "**كيرتس**" فخرج المفتش مسرعا ، وعاد بعد دقيقة . وفي يده ساعة من النوع الذي يباع لهواة (الجولف)

لكي يضعها اللاعب في جيبه مع الكرات .

قال :

– ها هي الساعة يا سيدي ، ولكنني لا أظن أنها ستفيدنا ؛ لأنها من النوع المتين الذي قلما يكسر أو يعطب .

فتناول العميد الساعة ووضعها على أذنه ، وقال بعد قليل :

– يُخيّل إليَّ أنها توقفت ..

وضغط زرا صغيرا ، ففتح غطاء الساعة ..

ووجد العميد أن الزجاج مكسور ، وأن العقربين قد توقفا عند الساعة السادسة والربع .

قال السيد "**كوين**" :

– هذا شراب جيد يا عميد "**ميلروز**" .

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ، وكان الرجال الثلاثة قد فرغوا لتوهم من تناول العشاء في بيت العميد .

قال "**ساترويت**" :

– يُخيّل إليَّ يا سيد "**كوين**" أن العناية الإلهية قد أرسلتك الليلة خصيصا لإنقاذ حياة شابين كانا يريدان أن يضعا عنقيهما في حبل المشنقة .

– أحقًّا ؟ لا بالتأكيد .. إنني لم أفعل شيئا على الإطلاق .

فقال "**ساترويت**" :

– إنني لن أنسى ما حييت لحظة أن قالت السيدة "**دوايتون**" : (أنا قتلته) .. كان الموقف رهيبا .. ولا أذكر أنني رأيت على المسرح مشهدا أشد وقعا منه .

فقال "**كوين**" :

– إنني أوافقك على هذا .

فقال العميد ، ربما للمرة العشرين في ذلك المساء :

– إنني لم أصدق أن شيئا كهذا يحدث خارج القصص .

فقال "**ساترويت**" :

– لقد كانت السيدة "**دوايتون**" عظيمة حقًّا ، ولكنها ارتكبت خطأ واحدا ، هو أنها توهمت أن زوجها قتل بالرصاص كذلك كان "**ديلانجوا**" مغفلا حين أعتقد أنه طعن بخنجر ، لا لشيء إلا لأنه رأى على المائدة أمامنا خنجرا أحضرته السيدة معها بطريقة المصادفة .

فتساءل "**كوين**" :

– أحقًّا أنها أحضرته بطريقة المصادفة ؟

فقال :

– لو أنهما اقتصرا على القول بأنهما قتلا السيد "**جيمس**" دون أن يذكرا التفاصيل ترى ماذا كان يمكن أن تكون النتيجة ؟

فقال العميد :

– إن الحادث يبدو كقصة خيالية .

قال "**كوين**" :

– أظن أنهما استوحيا الفكرة من إحدى القصص الخيالية ، فقال "**ساترويت**" :

– ربما .. إن ما يقرأه الإنسان ، كثيرا ما يعود إلى ذهنه بطريقة غريبة .

ثم نظر إلى "**كوين**" واستطرد قائلا :

– بالتأكيد إن موضوع الساعة كان يدعو إلى الريبة منذ البداية .. وكما قال العميد : ليس أيسر على الإنسان من العبث بالعقارب لتقديم الساعة أو تأخيرها .

فأومأ "**كوين**" برأسه موافقا وردد الكلمات الأخيرة :

– نعم .. لتقديم الساعة أو تأخيرها .

ونظر إلى "**ساترويت**" ، ولمعت عيناه السوداوان ، فقال هذا :

– نحن نعلم أن عقربي ساعة المكتب قد قُدِّما .

فقال "**كوين**" :

– أحقًّا ؟

فحملق "**ساترويت**" إلى وجهه وقال ببطء :

– هل تعني أن ساعة الجولف هي التي أُخِّرت ؟ ولكن هذا غير معقول .. هذا مستحيل !

فتمتم "**كوين**" قائلاً :

– ليس مستحيلا .

– ولكن لمصلحة من أُخِّر عقربا ساعة الجولف ؟

– لمصلحة شخص يستطيع إثبات وجوده في مكان آخر في ذلك الوقت .

فصاح العميد :

– يا إلهي ! . ذلك هو الوقت الذي قال "**ديلانجوا**" إنه كان يتحدث فيه إلى حارس الغابة .

فقال "**ساترويت**" :

– نعم ، إنه كان حريصا على تأكيد ذلك .

ونظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم بعضا ، وشعروا كما لو كانت الأرض التي يقفون عليها قد نهارت تحت أقدامهم .

أخذت الحقائق تدور في أذهانهم وتبدو في صورة واحدة .

فقال "**ميلروز**" :

– إذا صح ذلك فإن . . .

وكان "**ساترويت**" أسرع منه تفكيرا وأحد ذكاء فأتم عبارته قال :

– إذا صح ذلك فإن الموقف يختلف ويتغير من أساسه . إن الخطة مدبرة .. ليس في ذلك شك ، ولكنها مدبرة ضد الخادم "**جنجز**" .. ولكن هذا مستحيل .. لماذا راح كل منهما يتهم نفسه إذن ؟

فقال "**كوين**" بصوت هادىء خافت :

– إنكما كنتما ترتابان فيهما قبل أن يتهم كل منهما نفسه أليس كذلك ؟ فلما

فعلا ما يفعله البطل والبطلة البريئان في القصص ، أيقنتما أنهما بريئان .. استنادا إلى السوابق المماثلة في القصص ...

لقد قال العميد إن كل شيء يبدو وكأنه قصة من نسج الخيال ، وقال السيد "**ساترويت**" إنه أروع من أي مشهد مسرحي ، وكنتما على صواب فيما ذهبتما إليه ..

فقال "**ساترويت**" :

– تذكرت الآن شيئا قاله كبير الخدم . إنه قال إنه ذهب في الساعة السابعة لكي يغلق نوافذ قاعة المكتبة .. وهذا يعني أنه كان يعلم أن النوافذ مفتوحة .

فقال "**كوين**" :

– لقد دخل "**ديلانجوا**" من إحدى النوافذ المفتوحة .. وقتل السيد "**جيمس**" بضربة واحدة .. ثم فعل هو والسيدة "**دوايتون**" ما كان عليهما أن يفعلاه .

ونظر إلى "**ساترويت**" ليشجعه على تصوير الحادث فقال هذا بشيء من التردد :

– إنهما هشما ساعة المكتب ووضعاها على جنبها ، ثم عبثا بعقربي ساعة الجولف وهشماها .. وخرج "**ديلانجوا**" بعد ذلك من النافذة ، وأغلقت السيدة النافذة بعد خروجه .. ولكن هناك أمر يحيرني .. هو لماذا عبثا بساعة الجولف ؟ ولماذا لم يعمدا إلى تأخير ساعة المكتب ؟

فقال "**كوين**" :

– لأن ساعة المكتب كانت في مكان ظاهر .. ولأنه كان من الطبيعي أن يرتاب المحقق في أن بعضهم قد عبث بعقربيها .

– ولكن فكرة ساعة الجولف كانت بعيدة عن الأذهان . وقد خطرت ببالنا مصادفة .

فقال "**كوين**" :

– كلا .. لا تنس أن السيدة كانت صاحبة الفكرة .

فنظر إليه "**ساترويت**" في دهشة وعجب ..

وقال "**كوين**" :

– ومع ذلك فإن الشخص الوحيد الذي لا يمكن أن ينسى ساعة الجولف ، هو "**جنجز**" ، الخادم الخاص .. إن الخادم الخاص يعرف أكثر من أي إنسان آخر ما هي الأشياء التي في جيب سيده . ولو كان "جنجز" قد عبث بساعة المكتب .. فإنه لابد أن يعبث بساعة الجولف .

إن هذين العاشقين الأحمقين لا يعرفان الطبيعة البشرية .. وليست لهما براعة السيد "**ساترويت**" .

فهز "**ساترويت**" رأسه وقال في تواضع :

– إنني كنت مخطئا على طول الخط ، فقد ظننت أن العناية الإلهية أرسلتك لإنقاذهما .

فقال "**كوين**" :

– إنني أنقذت عاشقين آخرين .. هل رأيت وصيفة السيدة ، إنها لا ترتدي ثوبا من حرير . ولا تمثل دورا دراميا .. ولكنها جميلة حقًّا ، وهي تحب "**جنجز**" بإخلاص .. وأعتقد أنك والعميد تستطيعان التعاون لإنقاذ هذا الرجل "**جنجز**" من المشنقة .

فقال العميد :

– ولكن ليس لدينا أي دليل ، من أي نوع .

فابتسم السيد "**كوين**" وقال :

– إن الدليل لدى السيد "**ساترويت**" .

فهتف "**ساترويت**" في دهشة :

– لدي أنا ؟

– إن لديك الدليل على أن ساعة الجولف لم تتهشم في جيب السيد "**جيمس**" .. إن ساعة كهذه لا يمكن أن يتهشم زجاجها إلا إذا فتح غطاؤها .

جرب ذلك بنفسك وسترى أنني على صواب .

لقد أخذ بعضهم الساعة من جيب السيد "**جيمس**" وفتحها وأخر عقربيها ، ثم حطم زجاجها وأغلقها وأعادها إلى جيب القتيل ... ولم يلاحظ الشخص الذي فعل ذلك أن زجاج الساعة تنقصه قطعة .

فصاح "**ساترويت**" :

ومد يده إلى جيبه بسرعة ، وأخرج قطعة الزجاج المقوسة التي التقطها من المدفأة .

قال في خيلاء وهو يلوح بقطعة الزجاج :

– بهذه سننقذ حياة إنسان .

- 5 -

لعبة المطاردة

– هنا ناحية اليمين .. في مكان ما .. جزيرة كبيرة والحق أنها لغز غامض.

ورد "**رينفورد**" على كلمات "**هويتني**" قائلا :

– وأي نوع هي من الجزر ؟

وقال "**هويتني**" :

– إن الخرائط القديمة تطلق عليها اسم "مصيدة السفن" . وهو كما ترى اسم واضح المعنى ، البحارة يخشون هذا المكان ، ويحاولون دائما أن يتحاشوه ويبتعدوا عنه ، وإن كنت لا أدري لذلك سببا .. ولعل الأمر مرجعه شائعة خرافية تسود الأذهان .

وحدق "**رينفورد**" بجماع عينيه محاولا أن يخترق ببصره ظلمات تلك الليلة الاستوائية الداكنة التي تحتوي اليخت المنساب فوق المياه الدافئة بغلالة لا تنفذ فيها العين .

وقال "**رينفورد**" :

– إنني لا أستطيع أن أتبينها .

وقال "**هويتني**" وهو يطلق ضحكة خفيفة :

– إن لك بصرا حديدا فقد عرفتك ترى الفأر في الغابة ونحن منه على مسافة مائة متر ، فأنا الآن في عجب حين أراك عاجزا عن رؤية الجزيرة ونحن منها على قيد أربعة أميال .

وأغرق "**رينفورد**" في الضحك بدوره وهو يقول :

– ولن أستطيع أن أراها ولو كانت على قيد أربعة أمتار ، فظلمات البحر الكاريبي دامسة شديدة . . إن الضباب يتراءى لي كأنه أستار من القطيفة السوداء .

وقال "**رينفورد**" بعده في نبرة صادقة :

– سيكون الضباب في (ريو) أخف وطأة بكثير . . وسوف نصل إلى هذه المنطقة خلال أيام قلائل . وأرجو أن يكون في "**الأمازون**" رحلة صيد رائعة .

ثم أردف وهو يلوح بيده في الهواء :

– الحق أن الصيد أمتع رياضة مارستها .

وقال "**رينفورد**" مؤمّنا بنفس الحماس :

– إنه أعظم رياضة في العالم .

واستطرد "**هويتني**" يقول :

– أعظم رياضة عند الصياد ، ولكن ليس بالنسبة إلى النمور .

وهزَّ "**رينفورد**" كتفيه وقال :

– دعك من هذا الهراء يا "**هويتني**" . . إنك من أعظم الصيادين في العالم ، فلا تحاول أن تجعل من نفسك فيلسوفا .

ثم أردف في نبرة ساخرة وهو يضحك :

– من الذي يهمه ما تفكر فيه النمور ! . . إن أحدا لا يعنيه أن تعتقد النمور أن الصيد متعة رائعة أم رياضة سخيفة تافهة .

وجارى "**هويتني**" صاحبه في ضحكاته وقال :

– النمور يعنيها ما تفكر فيه النمور وما تشعر به .

– وهل تعقل النمور وتفكر ؟ .. إن الحيوان لا عقل له ولا قدرة على التفكير والفهم .

– ورغم ذلك فإنها تستطيع أن تفهم شيئا واحدا ، هو : الخوف .. الخوف من الموت ، والخوف من الألم .

وعاد "**رينفورد**" يغرق في الضحك وهو يقول :

– هراء .. يبدو أن حرارة الجو ألانت من طباعك وجعلتك لين القلب شاعري الأحاسيس ...

اسمع يا "**هويتني**" .. كن واقعيا ، واطرح عنك هذه الخزعبلات .. إن هذه الدنيا تتألف من طائفتين : الصياد ، والطريدة .. ومن حسن الحظ أننا – أنت وأنا – من فئة الصيادين لا الطرائد .

ثم أردف يتساءل في اهتمام :

– أترانا تجاوزنا الآن هذه الجزيرة التي يسميها القدماء : "مصيدة السفن" ؟..

– لا أدري ، فالظلام دامس لا أتبين فيه شيئا . ولكني أتمنى أن نكون قد بعدنا عنها .

وتساءل "**رينفورد**" :

وما السبب ؟ ..

– إن لهذه المنطقة سمعة مخيفة .

فتساءل "**رينفورد**" :

– أتعني آكلة لحوم البشر ؟ ..

– كلا ، فآكلة لحوم البشر أنفسهم لا يجسرون على الإقامة في هذه المنطقة المهجورة .. إن البحارة يرتعدون خوفا عند الاقتراب منها .. ألم تلاحظ أن البحارة بدوا اليوم مضطربين متوتري الأعصاب ؟ ..

– الواقع أنني لاحظت أن في تصرفاتهم شيئا من الغرابة ، وإن كنت لم أدرك

السبب ، بل إن الكابتن "**نيلسون**" نفسه . .

فبادر "**هويتني**" يقول مقاطعا :

– هذا صحيح ، فهذا الرجل القوي الشكيمة الصلب المراس ، الذي لا يهاب الأهوال ، بدا متوترا هو أيضاً ، ففي عينيه الزرقاوين ذات النظرات الثابتة القاسية لمست نظرة جديدة لا عهد لي بها من قبل . ولقد استدرجته إلى الحديث عما به ، فلم يزد على أن قال : "إن لهذه المنطقة سمعة سيئة بين رجال البحر يا سيدي" . ثم أردف يخاطبني في نبرة مفعمة بالقلق : "وأنت يا سيدي . . ألا يخامرك شعور غريب ؟ . ."

واستطرد "**هويتني**" يقول :

– ومن الغريب فعلا أنني ما سمعت كلماته حتى ساورني شيء من القلق والتوتر، كأنما الجو مشحون فعلا بما يثير الأعصاب . وأرجوك ألا تسخر مني إذا قلت لك إنني شعرت عندئذ . بموجة من البرودة تشتمل جسدي وتسري في أوصالي .

فقال "**رينفورد**" في رقة :

– ولم أسخر منك ؟

– لأننا كنا على خط الاستواء ، والجو أدنى إلى الحرارة ، وليس في الهواء نسمة واحدة . . كان الهواء ساكنا ، ومياه المحيط منبسطة هادئة ، ولكننا كنا نقترب من الجزيرة الملعونة .

وقال "**رينفورد**" :

– لا شك عندي في أن ما شعرت به كان ضربا من الأوهام والخزعبلات . . بحار واحد يؤمن بالخرافات كفيل بأن ينقل العدوى إلى كل من السفينة .

ربما كنت على حق، ولكني لا أكتمك أنّني أعتقد أن للبحارة حاسة سادسة تشعرهم بما يحيق بهم حين يُستهدفون للخطر. . وأنه ليُخيّل إليّ أحيانا أن للشر خيوطا خفية متشعبة ذات موجات أثيرية بعيدة المدى، كالضوء والصوت. ولهذا يمكنني أن أقول إن المكان الشرير يطلق موجاته أو ذبذباته

فتشمل كل من يقترب منه وتؤثر فيه. وإنني لسعيد بأننا ابتعدنا عن هذه المنطقة.

وران عليهما الصمت برهة ، ثم قال "**هويتني**" :

– إنني متعب قليلا ، وسآوي إلى فراشي .

ورد عليه "**رينفورد**" قائلاً :

– أما أنا فلا يراودني النعاس ، وسأبقى قليلا لأدخن فترة من الوقت ، ثم أمضي إلى مقصورتي .

– إذن طابت ليلتك ، وسألقاك على مائدة الفطور .

– حسنًا .. إلى اللقاء إذن يا "**هويتني**" .

◆◆◆◆◆

لبث "**رينفورد**" جالسا على سطح اليخت ، يدخن غليونه ، ومن حوله ليل ساكن، لا تسمع فيه إلا هدير المحرك الذي يدفع اليخت في انسياب سريع إلى أحضان الظلام الدامس ، ورشاش الماء وهو يتطاير في الجو حين تضربه مراوح اليخت .

وتراخى "**رينفورد**" في كرسي وثير من كراسي البحر ، مستمتعا بلذة التبغ الذي يدخنه ، وقد خامره شعور بالخمول لفرط الهدوء الذي يشتمل المكان .

وسرح ببصره بعيدا ، محاولا أن يخترق حجب الظلام .

ثم قال في نفسه :

– ألا ما أشد هذه الظلمة ! .. إن في وسعي أن أنام دون أن أطبق عيني ، فإن ظلام الليل بمثابة الجفون .

وجاءه صوت فجائي جعله يجفل في فزع .

لقد صدر الصوت من ناحية اليمين ، وهو لا يمكن أن يكون مخطئا ، فإن من يتخذ الصيد والقنص هواية لا يلبث أن يصبح خبيرا بالأصوات ، يميز بينها ، ويتبينها حتى لو كانت خافتة لا تكاد تُسمع .

وللمرة الثانية سمع نفس الصوت ، ثم عاد يتردد في سمعه للمرة الثالثة .

هناك في قلب الظلام ، أطلق بعضهم الرصاص ثلاث مرات .. ثلاث طلقات نارية متتابعة .

هب "**رينفورد**" واقفا ، ومشى مسرعا إلى سياج اليخت ، وقد استبدت به الحيرة والقلق .

وركز بصره محدقا إلى الناحية التي صدر منها دوي الطلقات الثلاثة . ولكن كان مستحيلا عليه أن يتبين شيئا ، أي شيء ، في هذه الظلمات الكثيفة .

وأراد أن يوسع أمامه مجال الرؤية ، فاعتلى أحد القضبان الأفقية للسياج ، وهو ممسك بالقضيب العلوي ، وفي صعوده اصطدم غليونه بأحد الحبال ، فطار من بين شفتيه منحدرا إلى البحر ، وبسط "**رينفورد**" يده بسرعة محاولا أن يمسك بالغليون .

وكان أن اختل توازنه ، فحاول أن يتشبث بالسياج ، ولكن جسمه انثنى إلى الخارج ، وأطلق صرخة مدوية ، وهوى من فوق سياج اليخت .

وإن هي إلا لحظات خاطفة حتى أطبقت عليه مياه البحر الكاريبي ، وطوته اللجة في غير تردد .

حاول "**رينفورد**" أن يصعد إلى سطح المياه ، وحاول أن يصرخ مستنجدا ، ولكن الموجة التي دفعتها مراوح اليخت المسرع لطمت وجهه في عنف حتى كادت تفقده الوعي ، كما تلقى فمه المغمور كمية من الماء المالح كادت أن تخنق حلقه .

وفي يأس وقنوط أخذ يسبح بكل قوته ، محاولا أن يهتدي بأنوار اليخت التي كانت تبتعد وتتضاءل .

بيد أنه توقف عن السباحة ولما لم يقطع عشرين مترا .

لقد عاودته رباطة جأشه ، واسترد هدوء أعصابه وثباتها ، فذلك لم يكن أول مأزق تردى فيه .

ثمة فرصة قد تسنح ، فيسمع صرخاته من يستقلون اليخت ، ولكنه ما كان

ليخدع نفسه في هذا ، فقد كان يعرف أنها فرصة ضئيلة ، وضآلتها تشتد كلما جد اليخت في سيره مبتعدا ، ومع ذلك فإنه لن يضيعها ، مهما بلغ من ضآلتها.

وجاهد حتى استطاع أن يخلع ثيابه وهو في الماء ، لكي تزداد سرعته ، وانطلق يصرخ بملء قوته ، وفي الوقت نفسه كان يسبح بأقصى سرعته ، محاولا اللحاق باليخت .

بيد أن هذا الأمل تبدد وتلاشى ، إذ مضى اليخت ينأى رويدا رويدا ، وأخذت أنواره المتلألئة تخبو تدريجيا ، حتى طواها الظلام .

وذكر "**رينفورد**" الطلقات النارية التي تناهى إلى سمعه دويها .

لقد صدرت من ناحية اليمين ، وهذا معناه أن في تلك الناحية شخصا أو أشخاصا هم الذين أطلقوا هذه الرصاصات الثلاث .

وعلى الفور تحول إلى اليمين ، وأخذ يسبح في هذا الاتجاه .

كان يسبح في بطء ، ولكن بضربات ثابتة ، محاولا أن يدخر قوته أقصى فترة ممكنة ، إذ كان لا يعرف متى ينتهي هذا النضال مع البحر .

وأخذ يسبح ، ويسبح ... وخُيّل إليه أن كفاحه لا نهاية له . وجعل يحصي ضربا ... إنه لن يستطيع أن يضرب الماء بعد ذلك إلا مائة ضربة على الأكثر . وبعدها لابد أن تخور قواه ، ويتخاذل جلده .

وعندئذ ...

سمع "**رينفورد**" صرخة .

من أعماق الظلام انطلقت الصرخة .. وكانت صرخة عالية ، داوية .. صرخة حيوان معذب مذعور .

ولم يستطع "**رينفورد**" أن يتعرف على فصيلة الحيوان الذي أطلق هذه الصرخة ، بل إنه لم يهتم أن يتبينه .. كان كل همه أن يصل إلى مصدر الصوت . وبحيوية جديدة وبجهد جديد ، أخذ يضرب الماء بذراعيه ، يشق طريقه فيه ، سابحا إلى حيث صدر الصوت .

وللمرة الثانية سمع الصرخة الداوية ، ثم سكت كل شيء ، وساد الهدوء عقب طلق ناري آخر .

وقال "**رينفورد**" لنفسه وهو ما زال يسبح بكل قوته :

– هذه طلقة من مسدس .

◆◆◆◆◆

بعد عشر دقائق من الجهد الخارق سرت إلى مسامع "**رينفورد**" أجمل أصوات طرقت أذنيه طوال حياته .

لقد سمع مياه البحر وهي تضرب شاطئا صخريا وتتكسر عليه ! ..

إذن ، فهناك على كثب منه أرض يمكن أن يلوذ بها .

وإن هي إلا لحظات حتى كانت الصخور منه على قيد ضربة ذراع .

وبكل ما به من بقية قوة تشبث بأول صخرة لمستها يده ، فهذه الصخرة هي طوق النجاة من الموت الذي كان يتربص به .

وكانت في الصخرة شقوق عديدة أحدثتها ضربات المياه ، فأخذ يدس أصابعه في تلك الشقوق ، واحداً بعد الآخر ، محاولا أن يتسلق الصخرة ، وأنفاسه تتلاحق لاهثة مبهورة ، حتى انتهى أخيرا إلى بقعة مسطحة عند القمة .

دار ببصره فيما حوله ، فتبين أن تلك الصخور تشرف على هوة عميقة تنتشر فيها غابة كثيفة ، وراح يسائل نفسه عما تضمه هذه الغابة من مخاوف ، وما تدخر له من أهوال . على أن هذه الخواطر لم تبعث في نفسه ذرة من القلق ، إذ كان حسبه في هذه اللحظة أن يفكر في أنه نجا من الموت .. نجا من عدوه الأكبر ، وهو البحر .

وألقى بجسده على الأرض ، وما لبث أن غرق في نوم عميق لم يعرف له مثيلا من قبل .

حين فتح "**رينفورد**" عينيه واستفاق من نومه ، أدرك من موضع الشمس أن الوقت جاوز الظهيرة بعدة ساعات . وقد أفاده هذا النوم كثيرا ، وأفاض عليه نشاطا

وحـيـوية دافـقـة . وأحس بالجـوع يفـري أحـشـاءه ، ولكن لم تـكن هذه بالمشـكلة العويصة .

إن الطلقات النارية التي سمعها تدوي دليل قاطع على أن في هذا المكان إنسانا ، وحيث يوجد الإنسان ، فلابد من وجود الطعام .

هذا ما دار في ذهنه فسرى الاطمئنان إلى نفسه .

على أنه ما لبث أن راح يسائل نفسه : أي نوع من الناس هنا وأي طراز .. هل هم من المتوحشين الذين سوف ينقضون عليه ، فيمزقونه إربا ؟ .. أم هم قوم متحضرون يجد منهم ما تصبو إليه نفسه من ترحيب ؟.. وهذه الغابة؟.. أهي مهبط الأهوال ، أم مناط الأمل والرجاء .. ؟

وألقى ببصره إلى الغابة التي تحت قدميه ، والتي تنحدر إليها الصخور في خط يكاد يكون رأسيا .

كانت أشجار الدغل متكاثفة متشابكة ، تتعانق أشجارها وتتداخل ، ولم يتبين فيها طريقا يمكن أن يسلكه . ثم إن الهبوط إليها قد يكون شاقا مضنيا، فآثر "**رينفورد**" أن يمشي على الصخور التي تدور بالجزيرة ، فهذا أهون مشقة من اقتحام الغابة وأبعد عن مواطن الخطر .

ولاحظ وهو ماض في طريقه خيطا من الدماء يلوث الأرض .. هذا حيوان جريح دون شك .. حيوان كبير ضخم الجثة ، فها هي ذي قوائمه مطبوعة بصماتها على الأرض ، ثم إنه اتجه إلى الغابة هاربا والدماء تنزف منه ، فبذلك يوحي خيط الدم ، ثم إن الأعشاب والشجيرات مهصورة تحت وطأة ثقله وبسبب جسمه الضخم في المكان الذي دخل منه إلى الغابة .

واسترعى بصر "**رينفورد**" شيء لامع على الأرض ، فمال فوقه والتقطه ، فإذا به خرطوشة فارغة ، أدرك على الفور أنها خرطوشة مسدس من عيار 22.

وقال لنفسه : عجبا ! عيار 22 لصيد حيوان مفترس ! .. الحق أنه صياد جريء.. لا شك أن الرصاصة الرابعة قضت عليه ، فهو الآن في الغابة جثة هامدة .

وانكب على الأرض يفحصها ، وكان سعيدا حين اكتشف ما كان يصبو

إليه.. كانت منطبعة على الأرض آثار حذاء الصيادين . وكان اتجاهها ماضيا إليه . وأسرع الخطى ، ولكن في حذر وحيطة ، فقد كان الطريق الذي يسلكه وعرا ، مليئا بالحصى والحجارة، تنتشر فيه حفر كثيرة يمكن أن تكون مزالق خطر داهم .

وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق ، وأخذ ظلام الليل ينشر أستاره على الأرض، واشتدت الغابة رهبة ووحشة .وفجأة حين انعطف عند أحد المنحنيات ، لاحت له الأنوار على البعد ، وطفرت السعادة إلى قلبه متدفقة طاغية ... ها هو ذا موشك أن يقع على ملاذ آمن ، يحميه من الجوع ومن الوحوش .

كان أول خاطر دار في ذهنه أن هذه أنوار إحدى القرى ، ولكن حين تقدم في مسيرته أدرك أن هذه الأنوار كلها إنما تنبعث من مبنى واحد .. مبنى قصر كبير مشيد على ربوة عالية ، وجوانبه الثلاثة تشرف على الجرف المتصل بالبحر ، حيث تنكسر أمواجه على الصخور .

وقال لنفسه وقد راودته فكرة يائسة :

ـ أهذا قصر حقيقي ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد خداع بصر ؟ .. مجرد سراب وهم من الأوهام ...

ولكنه لم يكن سرابا ولا خداع بصر .

ها هي ذي البوابة الحديدية أمامه .. وها هو ذا يلمس بأصابعه قضبانها الحديدية الباردة .. وها هي ذي البوابة تنفتح حين دفعها بيده .. وها هي أخيرا الدرجات الرخامية أمامه ، وقد استقرت قدمه على أول درجة منها .

كل هذه حقائق مادية ، وليست وهما أو خداعا .

وارتقى الدرج ، وألفى "**رينفورد**" نفسه واقفا أمام باب خشبي ضخم ، تتوسطه مطرقة من الصلب .

ورفع المطرقة ، ثم أنزلها يخبط الباب ، وجعله دويها يجفل ويباغت . ولكن الباب لم يفتح .

وعاد يطرق الباب من جديد ، وتناهى إلى سمعه وقع خطوات من وراء الباب

المغلق .

وإن هي إلا لحظات حتى تحرك الباب وفُتح ، ومضى "**رينفورد**" يرمش بعينيه، فقد بهرت بصره الأنوار المتلألئة التي تدفقت من الداخل .

وحين استقر بصره ، وجد نفسه يحملق إلى رجل لم يرَ في حياته من هو أضخم منه جسما وأطول قامة .. عملاق ضخم كالمارد يرتدي بذلة رسمية من القطيفة السوداء ، وأزرارها من النحاس الأصفر . وكان الرجل ملتحيا يكاد الشعر يحجب وجهه ، ومن وسط هذه الغابة من الشعر . تبرز عينان صغيرتان ، تنبعث منهما نظرات صلبة ثابتة .

وكان في يد الرجل مسدس ذو فوهة طويلة ، وكان المسدس مصوبا إلى صدر "**رينفورد**" .

وقال "**رينفورد**" وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة حاول أن يبدد بها مخاوف الرجل ذي المسدس :

– لا تخف يا صاح .. إنني لست لصا .. لقد وقعت من اليخت الذي كنت أركبه وكدت أغرق .. إن اسمي هو "**سانجز رينفورد**" من "**نيويورك**" .

بيد أن نظرة الوعيد التي كانت تطل من عيني العملاق لم تتبدل ، والمسدس المصوب إلى صدر "**رينفورد**" كان لا يزال في موضعه ، ينذر بالموت ، ولم يبد في سمات الرجل أنه تأثر بكلمات "**رينفورد**" أو أنه حتى وعى معناها أو سمعها، فقد كانت سحنته جامدة جمود الحجر الأصم .

وعاد "**رينفورد**" يقول في نبرة ودية :

– إنني "**سانجز رينفورد**" من مدينة "**نيويورك**" .. لقد وقعت من اليخت .. وأنا جائع؛ لأني لم أذق طعاما منذ الأمس .

وكان الرد الوحيد الذي تلقاه "**رينفورد**" هو أن العملاق حرّك المسدس قليلا ليحكم التصويب ، كما وضع طرف أصبعه على الزناد .

وفجأة اعتدل العملاق في وقفته ، وضم قدميه إحداهما إلى الأخرى في وقفة عسكرية ، ثم رفع يده إلى رأسه بالتحية .

وعندئذ رأى "**رينفورد**" رجلا آخر يهبط الدرج الرخامي العريض المفضي إلى الطابق العلوي .

كان الرجل طويل القامة ، نحيف البنية ، رشيق القوام ، وكان مرتديا ثياب المساء .

وتقدم الرجل إلى "**رينفورد**" ، وبسط إليه يده مصافحا .

وفي نبرة مهذبة قال :

– إنه ليسعدني كثيرا أن أرحب في بيتي بالسيد "**سانجز رينفورد**" الصياد الشهير .. إنني الجنرال "**زاروف**" . ولقد قرأت كتابك عن "صيد الفهود في جبال التبت الثلجية" .

كان أول انطباع لـ"**رينفورد**" أن الرجل وسيم القسمات ، وكان الانطباع الثاني أن في وجهه شيئا غريبا يسترعي الانتباه ، كان الرجل مديد القامة ، في سن الكهولة؛ لأن شعره كان أشيب شديد البياض ، ومع ذلك كان شاربه – على النقيض – شديد السواد ، وكذلك كان شأن حاجبيه . أما عظام وجنته فكانت شديدة البروز – وجملة القول إنه كان وجه رجل الأرستقراطي أَلِف إصدار الأوامر ، وألف أن يطاع .

وتحول الجنرال إلى العملاق الشاهر ، وأومأ إليه إيماءة خاصة ، فأودع المسدس جرابه ، ورفع يده بالتحية العسكرية ، ثم انسحب مبتعدا .

وقال الجنرال باسما في لهجة ودية :

– إن "**إيفان**" رجل شديد الصرامة بشكل شاذ ، وقد نُكِب بفقد السمع والقدرة على الكلام ، فهو أخرس أصم، وهو رجل طيب السريرة ، ولكنه كسائر عشيرته حاد الطباع .

وسأله "**رينفورد**" :

– أهو روسي ؟

– نعم .. إنه من القوقاز .

واتسعت ابتسامته حتى اشتملت وجهه ، وكشفت الابتسامة عن أسنان ناصعة

البياض ، وقال :

– وأنا أيضا قوقازي .

ثم استطرد في صوت رقيق النبرات :

– آه ! لقد كدت أنسى نفسي .. دعنا الآن من هذا الحديث ، ففي وسعنا أن نتحدث فيما بعد ، ففي الوقت متسع لذلك . أما الآن فأنت في حاجة إلى الثياب والطعام ، وسيكون لك منهما ما تشاء .

وجاء "**إيفان**" بعد لحظات ، وتحدث إليه الجنرال بتحريك شفتيه ، ولكن دون أن يتفوه بالكلام فكثيرون من الخرس الصم يستطيعون أن يدركوا ما تقول إذا أنت حركت شفتك في بطء ، دون حاجة منك إلى النطق .

ثم تحول الجنرال إلى "**رينفورد**" قائلا :

– أرجوك أن تتبع "**إيفان**" يا سيد "**رينفورد**" . إنني كنت موشكا أن أتناول عشائي عندما قدمت ، ولكني سأنتظرك وستجد أن ثيابي تلائم مقاسك فيما أعتقد .

ومضى "**إيفان**" يتقدمه إلى مخدع النوم ، وكانت غرفة واسعة رحبة ، يتصدرها سرير عريض جدًّا يتسع لخمسة أشخاص .

ووضع "**إيفان**" على الفراش ثياب المساء ، وحين تناولها "**رينفورد**" ليرتديها ، لاحظ أنها مصنوعة في "**لندن**" ، وأن اسم الترزي المدون عليها من أشهر صناع "**إنجلترا**" ، وعملاؤه من كبار اللوردات والدوقات .

وكانت غرفة المائدة التي دعي إليها "**رينفورد**" رائعة الفخامة ، مؤسسة بأفخر الرياش ، تتوسطها مائدة كبيرة طويلة ، وتتدلى من سقفها المرتفع ثريات بلورية ضخمة .

وإلى رأس المائدة كان الجنرال جالسا ، مرتديا ثياب المساء ، ينتظر قدوم ضيفه .

وقال الجنرال :

– أحسب أنك تريد كأسا من الشراب يا سيد "**رينفورد**" قبل تناول العشاء.

وأومأ "**رينفورد**" برأسه شاكرا .

وكان الشراب من نوع فاخر ، قدم إليه في كوب من البللور الممتاز .

وأعقب الشراب كأسا من شراب آخر .

وقال الجنرال :

– إننا نحاول هنا ألا نتخلف عن قواعد الحضارة ، ولكنني أرجو أن يكون الشراب لا يزال محتفظا بمذاقه ، وألا يكون حفظه فترة طويلة قد أفسده .

فقال "**رينفورد**" :

– إن مذاقه طيب جداً .

وحين قدم الطعام وجد أن الصحاف من الفضة الخالصة ، كما أحس أن الجنرال "**زاروف**" مضيف مجامل شديد الرعاية لضيوفه ، ويتحرى راحتهم .

على أن الشيء الذي أثار انتباهه ، وبعث في نفسه شيئا من القلق ، هو ما رفع بصره مرة ونظر إلى الجنرال "**زاروف**" ، إلا وجد الجنرال يحدق إليه ويتأمله باهتمام.

وقال الجنرال يتحدث إلى ضيفه:

– لعل الدهشة راودتك حين وجدتني أعرف أنك من كبار الصيادين .. والواقع أنني دائم الاطلاع على كل ما يكتب عن الصيد والقنص باللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو الروسية ، فهوايتي الوحيدة في هذه الدنيا يا سيد "**رينفورد**" هي الصيد .. إنه الشيء الوحيد الذي أتعلق به وأعشقه .

وقال "**رينفورد**" وهو يدير عينيه في رؤوس الوحوش المعلقة على جدران القاعة :

– إن لديك هنا مجموعة رائعة من رؤوس الحيوانات .

واستقر بصر "**رينفورد**" على رأس من بينها وقال :

– إني لم أر رأس ثور بهذا الحجم ... إنه أضخم رأس شاهدته في حياتي .

فقال الجنرال :

– آه ! هذا الرأس .. ؟ كان هذا الثور عملاقا ، وهو من فصيلة "**كيب**" .

وقال "**رينفورد**" في اهتمام :

– وهل هاجمك يا ترى .. ؟

– الواقع أنه طاردني بوحشية ، ووجدتني محصورا في مكان ضيق ، وظهري مستند إلى إحدى الأشجار ، وهو منطلق إلى ناحيتي للانقضاض عليَّ ، وقد عاجلته برصاصة قاتلة ، ولكن قرنه أصاب جبهتي ، وأوشك أن يهشمها .

فقال "**رينفورد**" :

– كنت أعتقد دائما أن ثيران "**كيب**" هي أشد الطرائد وحشية ، وأن صيدها من أشد المخاطر .

ومرت لحظات والجنرال صامت لا يعقب برأيه ، وإن ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة ، قد أطلت من عينيه نظرة تنطوي على معنى مثير لم يدرك "**رينفورد**" كنهه .

ثم قال في كلمات بطيئة متمهلة :

– كلا يا سيد "**رينفورد**" .. إنك مخطىء في هذا .. إن ثيران "**كيب**" ليست أشد الطرائد خطرا .

وتناول رشفة من قدحه ، ثم استطرد :

– في هذه الجزيرة طرائد أشد خطرا من ثيران "**كيب**" . فقال "**رينفورد**" في شيء من الدهشة :

– أفي هذه الجزيرة طرائد صالحة للصيد والقنص ؟

وأومأ الجنرال برأسه قائلا :

– بل فيها أكبر الطرائد وأشدها وحشية .

– حقًّا .. ؟! هذا غريب .

فابتسم الجنرال وقال :

– إن الجزيرة لم تكن موطنها الأصلي ، ولكنني جئت بها إلى الجزيرة ، وأطلقتها فيها ، فتناسلت ، واتخذتها موطنا جديدا .

وتساءل "**رينفورد**" :

– وما هي الحيوانات التي استوردتها يا جنرال ؟ .. نمور ؟ ..

وعاد الجنرال يبتسم من جديد وقال :

– لا يا سيد "**رينفورد**" .. إن صيد النمور لم يعد منذ سنوات يثير اهتمامي.. لم يعد في قنص النمور من المخاطر ما يشبع ولعي بالمغامرة .. إنني مولع بالخطر يا سيد "**رينفورد**" ، وقد وهبت حياتي للأخطار .

وتناول الجنرال من جيبه علبة سجائر ذهبية ، وقدم إلى زائره سيجارة طويلة سوداء اللون ذات مبسم فضي ، وحين أشعلها "**رينفورد**" تصاعد منها شذى عطري .

وقال الجنرال وهو ينفث دخان سيجارته :

– سنقوم ، أنت وأنا بحملة صيد رائعة ، وسوف يسعدني أن أكون في صحبتك .

وقال "**رينفورد**" متسائلا :

– ولكن ما هي الطرائد التي سنقوم بصيدها ؟

– سأخبرك ، وسوف يثيرك ما تسمع .

وبعد سكتة قصيرة استطرد الجنرال يقول :

– إنني أستطيع أن أقول بمنتهى التواضع ، وبمنتهى الفخر أيضا ، إنني أنجزت شيئًا نادرا .. لقد قمت بابتكار مثير .. وإني لفخور بذلك .. أتحب يا سيد "**رينفورد**" أن تشرب كأسا آخر من الشراب ؟

– شكرا لك يا جنرال .

وملأ الجنرال كأسين ، قدم أحدهما إلى ضيفه .

واستطرد يقول :

– يخلق الله الناس طبقات مختلفة ، فيجعل بعضهم شعراء ، ويجعل سواهم ملوكا ، وغيرهم فقراء متسولين .. أما أنا ، فخلق مني الله صيادا .. لقد قال أبي عني إن يدي خلقت لكي تضغط الزناد .. كان أبي ثريا واسع الثراء ، وكان يملك

في بلاد القرم ربع مليون فدان ، كما كان رياضيا أصيلا ممتازا .

وتناول الجنرال "**زاروف**" جرعة من الشراب ، ومضى يقول :

– وحين كنت في الخامسة من العمر أعطاني بندقية صغيرة صنعت من أجلي خصيصا في "**موسكو**" ، وطلب مني أن أصيد بها العصافير ، وهكذا تدربت على إصابة الهدف وإحكام التصويب . وقد استطعت أن أصيد دبا في جبال "**القوقاز**" ، وأنا بعد في العاشرة من عمري . . وهكذا كانت حياتي كلها حلقة متصلة من الصيد والقنص . وحين التحقت بالجيش ، توليت قيادة كتيبة من فرسان "**القوقاز**" ، ولكن اهتمامي الوحيد لم يكن يثيره إلا الصيد . وقد اصطدت جميع أنواع الحيوانات والوحوش ، وفي شتى بلاد العالم ، والواقع أنه عسير علي أن أحصي ما اصطدت حتى اليوم ، فالطرائد التي صدتها تفوق الحصر.

ونفث الجنرال عدة أنفاس من سيجارته ، ثم استرسل :

– بعد نشوب الثورة البلشفية في "**روسيا**" غادرت البلاد، فليس من الحكمة أن أبقى هناك في عهد الثورة وأنا من ضباط القيصر . وكان من حسن حظي أنني كنت أستثمر جزءا كبيرا من ثروتي في سندات أمريكية ، فلما هاجرت من وطني كان لدي من المال ما يهيئ لي حياة مترفة . وهكذا مضيت أمارس هواية القنص في شتى البلاد ، فصدت الظباء في جبال "**روكي**" الأمريكية ، والتماسيح في "**الكونغو**" ، والخرتيت في "**شرق إفريقيا** " ، والحادث الذي شج فيه رأسي حين نطحني ثور "**كيب**" إنما وقع لي في "**إفريقيا**" ، وقد لزمت الفراش في المستشفى عندئذ ستة أشهر كاملة . ولكنني ما كدت أشفى وأسترد عافيتي حتى رحلت إلى بلاد "**الأمازون**" لأصيد الفهود ، لما سمعت عن دهائها .

وتنهد الجنرال القوقازي وقال :

– ولكن فهود "**الأماوزن**" لم تكن من الدهاء بالقدر الذي وُصف لي . . لقد بالغوا في وصفها بالمكر والدهاء وقدرتها على خداع الصياد ، فإن أي صياد على قدر معقول من الذكاء يستطيع أن يصيدها بسهولة ، ما دام يحمل في يده بندقية

قوية بعيدة المدى .

وبعد سكتة قصيرة استطرد الجنرال "**زاروف**" الحديث بقوله :

– حدث ذات ليلة أن كنت راقدا في خيمتي أشكو صداعا كاد يحطم رأسي . وعلى حين بغتة غزت رأسي فكرة عجيبة .. فكرة رهيبة .. قلت لنفسي إن الصيد قد أصبح عندي باعثا على الملل ، خاليا من الإثارة ، وإنه فقد روح المغامرة .. ولعلك تذكر ما قلته لك من أن الصيد هو حياتي التي أعيش من أجلها ، وأنني إن تخليت عن ممارسته فكأنني قضيت على نفسي بالموت .

فقال "**رينفورد**" :

– إنني مقدر مشاعرك تماما .

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي الجنرال وقال :

– ولا يروق لي بالتأكيد أن أقضي على نفسي بالموت . وأنا يا سيد "**رينفورد**" رجل متفتح الذهن ، قادر على التحليل ، أعرف كيف أربط المقدمات بالنتائج ، ولهذا سألت نفسي عما جعل الصيد عندي متجردا من الإثارة ، باعثا على الملل .. ما هو السبب الذي جعل الصيد خاليا من المغامرة؟

فقال "**رينفورد**" :

– نعم .. ما هو السبب ؟

– السبب في أن الصيد لم يعد ممتعا هو أنه أصبح سهلا هينا . أخرج إلى الصيد، ثم أعود حاملا الطرائد .. عملية خالية من المشقة .. عملية روتينية مملة.. أين النضال ؟.. أين المغامرة .. لا شيء من هذا .

وأشعل الجنرال سيجارة جديدة ، واسترسل :

– لم يعد لأي حيوان مهما كان شأنه فرصة للفرار من رصاص بندقيتي .. ليس هذا ضربا من الغرور ، ولكنه الحقيقة الواقعة .. ليس للحيوان إلا قوائمه وغرائزه ، والغريزة مهما كانت مرهفة لا يمكن أن تضاهي العقل في قدراته .. وعندما خطرت لي هذه الفكرة يا سيد "**رينفورد**" كانت لحظة مأساوية .

ومال "**رينفورد**" إلى المائدة يستند إليها بمرفقيه ، وقد أثاره حديث الجنرال "**زاروف**" .

واستطرد رب الدار :

– ونزل عليّ فيما يشبه الإلهام ما ينبغي أن أفعل .

– وماذا كان هذا يا تُرى ؟

وارتسمت على شفتي الجنرال ابتسامة هادئة واستطرد :

– يجب أن "أخترع" حيوانا جديدا لكي أصيده .

– حيوان جديد ؟ ! إنك تمزح يا جنرال ؟ . .

فقال الجنرال في جدية ورصانة :

– إنني لا أمزح . . إني ما اتخذت من الصيد في حياتي سببا للمزاح . . الصيد عندي أمر مقدس لا مزحة فيه . . نعم إنني في حاجة إلى حيوان جديد ينطوي صيده على الإثارة .

ولاذ الجنرال بالصمت هنيهة ، ثم قال في اقتضاب :

– وقد وجدته . . وجدت هذا الحيوان الجديد . ولهذا السبب اشتريت هذه الجزيرة ، وشيدت فيها هذا البيت ، واتخذت منها مسرحا للصيد . . إن هذه الجزيرة خير مكان للصيد والقنص ، ففيها غابة كبيرة كثيفة ، كما أنها مليئة بالتلال والمستنقعات .

– ولكنك لم تحدثني يا جنرال "**زاروف**" عن حيوانك الجديد . . هذا الذي اخترعته ، وكيف اخترعته .

– أوه ! . . لقد هيأ لي أقوى أسباب الإثارة في عملية الصيد . . إني الآن أمارس الصيد في كل يوم ، مع ذلك لا أشعر أبداً بالملل ، وذلك لأن للطريدة التي أسعى وراءها "عقل" يمكن أن يكون ندا للعقل الإنساني .

فبادر "**رينفورد**" يقول معترضا :

– ولكن ليس ثمة حيوان له عقل . . . إن الحيوان عاجز عن التفكير

– ولكن حيواني أنا يا عزيزي "**رينفورد**" له عقل ، ويستطيع أن يفكر .. إنه في هذه الدنيا الحيوان الوحيد الذي ميزه الله بالعقل وبالقدرة على التفكير.

– هذا عجيب .. هذا مستحيل .. تصيد البشر ؟ .. أغلب الظن أن قولك هذا مزحة مبالغا فيها .

– قلت لك إنني لا أمزح أبدا فيما يتعلق بالصيد .. إن له عندي مرتبة القداسة.

– وهل تسمي هذا صيدا وقنصا يا جنرال "**زاروف**" ؟ .. إنه قتل واغتيال .

وأطلق الجنرال ضحكة مرحة وقال :

– إني لا أستطيع أن أصدق أن رجلا متحضرا مثلك جاب بلاد الدنيا كلها يمكن أن يتشبث بهذه الأفكار الخيالية عن قيمة الحياة البشرية .. إنك التحقت بالجيش وحاربت ، فهل كنت خلال المعارك تعف عن القتل ؟

– هذا شيء مختلف تماما يا جنرال ، فالقتل شريعة الحروب ، أما ما تتحدث أنت عنه فقتل متعمد .

وعاد الجنرال يطلق ضحكة صاخبة ، وحين تماسك وكف عن الضحك ، مضى يقول :

– ما أغرب أمرك يا صديقي ! .. إني ما كنت أتصور أبدا أن ألتقي في هذا العصر برجل له سذاجتك .. إن أفكارك يا صديقي قد أصبحت بائدة ، ولا محل لها إلا في العصر الفكتوري .. عصر الأجداد الذين اندثروا واندثرت معهم مبادئهم الساذجة .

ثم استطرد يقول وقد علت شفتيه ابتسامة عريضة :

– لا شك عندي في أنك ستطرح عنك هذه الأفكار البالية حين نخرج – أنت وأنا – للصيد معا .. سوف تلمس في طريقتي متعة مثيرة لم تشهد لها مثيلا من قبل .

فرد "**رينفورد**" في صوت حازم النبرات :

– إنني صياد يا جنرال ، ولكنني لست قاتلا .

وهتف الجنرال "**زاروف**" في استنكار :

– يا إلهي ! .. أتعود مرة أخرى فتردد هذه العبارات البشعة ؟ .. إني موقن من أن في وسعي أن أغيّر عقيدتك، وأن أبرهن لك على أن ثورة ضميرك لا تستند إلى أساس .

– حقًا ؟ ! .. وكيف ذلك بالله عليك ؟ ..

– اسمع يا عزيزي "**رينفورد**" .. إن الحياة للأقوياء ، لا للضعفاء .. الأقوياء هم الذين يجب أن يعيشوا ، أما الضعفاء فلا مفر من أن يندثروا .. إن على الأقوياء أن يأخذوا الدنيا اغتصابا – تلك هي سنة الحياة وشريعة الأقوياء .

ولاذ بالصمت برهة خاطفة جرع خلالها رشفتين من شرابه ثم استرسل يقول:

– إنني رجل قوي ، فلم لا أستغل موهبتي ؟ .. إنني أريد أن أمارس الصيد، ما الذي يحول دوني وممارسته ؟ .. ثم يجب أن تعلم أنني لا أصيد من الرجال إلا حثالة الأرض وصعاليك الناس.. إنني أصيد أخس الفئات : البحارة الذين يعملون على سفن التهريب وهم كما تعلم من أحط الطبقات .. إنهم جميعا من اللصوص والمحتالين والمحكوم عليهم .. الهاربين من سطوة القانون، إنهم من حثالة الزنوج والصينيين .. إن حياة الكلب أقدس عندي من حياة هؤلاء القوم.

فقال "**رينفورد**" في انفعال :

– أنسيت يا جنرال أنهم بشر ؟ .. بشر مثلنا ؟ ....

– و هذا هو ما يجعلني شغوفابصيد الرجال .. إني أجد في ذلك متعة لاتضاهيها متعة أخرى .. إنهم يستطيعون أن يفكروا ، وهم يحاولون أن يبطشوا بي ، وفي هذا ما يضفي على عملية الصيد إثارة رائعة ...

وقال "**رينفورد** متسائلا في اهتمام :

– ولكن كيف تحصل على هؤلاء الرجال .. ؟ من أين تأتي بهم .. ؟

وأطلق الجنرال ضحكة مرحة و قال :

– أتعرف الاسم الذي يطلقه البحارة على هذه الجزيرة .. ؟ إنهم يسمونها : (مصيدة السفن) ، ففي بعض الأحيان يثور البحر ، ويقذف إلى الشاطئ ببعض

السفن ، فترتطم بالصخور و تتحطم ، ويقع بحارتها بين يديّ. أما إذا بخل عليٍّ البحر بالصيد المنشود ، فإن لديَّ وسائل أخرى أجتذب بها السفن... تعال انظر من النافذة لأريك ما أعني .

ومشى "رينفورد" إلى النافذة ، وأطل منها على البحر .

كان الظلام ضاربا أطنابه ، لولا شعاع ضيئل ينبعث من القمر الذي تخفيه غلالة خفيفة من السحب .

و قال الجنرال وهو يومئ بأصبعه إلى الفضاء خارج النافذة :

– والآن انظر ما سوف يحدث .

ثم ضغط زرا في الجدار، فإذا ومضات من النور تتلألأ وتنطفئ تباعا مرة بعد مرة .

– هذه الأنوار كما رأيت شبيهة بأنوار الفنارات التي ترشد السفن إلى مجرى آمن في المناطق الصخرية ، فإذا ما رأت المراكب المارة بالقرب من جزيرتي هذه الأنوار اتخذت طريقها مسترشدة بها ، وهي تظن أنها تجري في مجرى مائي خال من الصخور في حين أن هذا المجرى لا وجود له . وهكذا ترتطم بصخور الجزيرة وتتهشم ، ويرتمي البحارة على الشاطئ متعبين مكدودي القوى ، فألتقطهم وأدعوهم إلى بيتي ، ثم أتخذ منهم فيما بعد طرائد للصيد ، يضاعفون عندي الشعور بالمتعة والإثارة .

– يا للقسوة ! .. تقتل البشر ، وتجد في هذا متعة وإثارة ! ..

وتبدت في عيني الجنرال موجة من الغضب ، بيد أنها لم تستغرق سوى ثوان معدودات ثم ما لبث أن تبددت وتلاشت وعاد يقول بتلك النبرات الرقيقة المهذبة :

– رحماك يا ربي ! .. يا لك من شاب متزمت ، متشبث بالمثل العليا !.. إني أؤكد لك يا صديقي أنك واهم فيما تقول . إنني لا أقترف ما تظنه بي .. نعم.. إني لا أقتل ، وإلا كنت وحشا على صورة إنسان .. إنني أعامل هؤلاء الضيوف بمنتهى الرعاية والإعزاز .. إنني أقدم إليهم من الطعام كميات وفيرة ، وأجعلهم

يمارسون الألعاب الرياضية ، وحين يصبحون في صحة جيدة يشعرون بالامتنان لي.. وسوف تشهد ذلك بنفسك غدا .

فتساءل "**رينفورد**" :

– ماذا تعني ؟

فارتسمت على شفتي الجنرال ابتسامة خفيفة وقال :

– غدا ستزور مدرسة التدريب .. إن مقرها في قبو البيت ، ولدي في الوقت الحاضر حوالي عشرة تلاميذ أو أكثر قليلا ، وهم من بحارة السفينة الإسبانية "**لارك**" ، التي كان من سوء طالعها أن ارتطمت بالصخور ، فتهشمت، ولاذ بحارتها بجزيرتي .

فقال "**رينفورد**" مقاطعا في حدة :

– وأنت بالتأكيد الذي استدرجتها إلى صخور الجزيرة بأنوار فنارك الزائف.

واستطرد الجنرال "**زاروف**" دون أن يابه لهذه المقاطعة :

– يجب أن أعترف أن طبقة البحارة حقيرة من أحط الطبقات ، كما أنهم معتادون حياة البحر دون الغابات .

ورفع يده يومئ إلى "**إيفان**" الذي كان واقفا في ركن القاعة بلا حراك ، حتى لكأنه تمثال قُدّ من الصخر ، فأسرع الجندي يحمل إلى مولاه أقداح القهوة التركية اللذيذة المذاق .

وتابع الجنرال الحديث قائلا :

– عندما يصبح الرجل منهم في حالة صحية جيدة ، أدعوه إليّ ، وأقول له إننا سنخرج للصيد ، وأزوده بكمية وفيرة من الطعام تكفيه بضعة أيام ، وأسلحه بخنجر حاد من خناجر الصيد ، ثم أجعله يخرج إلى الغابة قبلي بثلاث ساعات، ثم أتعقبه مسلحا بأصغر أنواع المسدسات عيارا ، وبأقصرها مدى .. فإذا استطاع طريدتي أن يراوغني ويفلت مني ثلاثة أيام كاملة ، فإنه يفوز عليّ، ويكسب اللعبة ، أما إذا عثرت عليه فإنه يخسر ويفقد حياته .

فقال "**رينفورد**" متسائلا :

– هبه رفض أن يجعل من نفسه طريدة للصيد ؟

– إن له حق الاختيار بالتأكيد ، وهو غير مجبر على ممارسة هذه اللعبة إن لم يكن راغبا في ذلك ، فإني أكره أن أرغمه على شيء لا يرضاه .

– هل تعني أنه إذا رفض ممارسة الصيد فإنك تخرجه من الجزيرة ، وتبعث به إلى أرض أخرى ؟

– لا بالتأكيد .. إن رفض الصيد عهدت به إلى "**إيفان**" ليتولى أمره ، و"**إيفان**" – إن كنت لا تعلم – كان جنديا في حرس القيصر ، وكان عمله هو جَلْد من يغضب عليهم القيصر بالسياط .. نعم . إن "**إيفان**" خبير باستعمال السوط ، وإذا ما ذاق الرجل منهم ضربات السياط صاح يختار أن يكون طريدة الصيد .

وتساءل "**رينفورد**" :

– وإذا أنت لم تعثر عليه وكسب اللعبة ؟

واتسعت ابتسامة الجنرال حتى اشتملت وجهه كله وقال :

– ولكن حتى اليوم لم أخسر الجولة ولا مرة واحدة .

ثم استطرد يقول في كلمات سريعة :

– إن كثيرين منهم يفكرون في الهرب من القصر ، ولكن الفرار يكاد يكون مستحيلا مع وجود الكلاب .

– الكلاب ؟ .. ماذا تقصد ؟ ..

– تعال معي من فضلك ، وسوف ترى بنفسك ما أقصده .

وقاد الجنرال ضيفه إلى إحدى نوافذ القاعة ، وكان الضوء الذي يتسرب من النافذة إلى فناء القصر كافيا لكي يستطيع "**رينفورد**" أن يتبين على هذا الضوء الخافت انبطاح تلك الكلاب الضخمة التي تتجول في الفناء .

وحين شعرت الكلاب بأن غريبا يطل عليها من نافذة القصر ، رفعت رؤوسها إلى أعلى مزمجرة ، وهي تتطلع إليه بعيون ينبعث منها الشرر .

وقال الجنرال :

– إن لدي من الكلاب مجموعة رائعة ، وهي من خير الفصائل وأذكاها وأشدها شراسة ، وقد اعتدت أن أطلقها كل ليلة عند السابعة مساء ، فلو خطر لأحد من الناس أن ينزل إلى الحديقة لمزقته إربا .

واستطرد الجنرال :

– والآن أحب أن أريك ما لدي من مجموعة الرؤوس الآدمية .. فهل لك ياصديقي أن تصحبني إلى المكتبة .

وكان جواب "**رينفورد**" أن قال :

– أرجو أن تعفيني الليلة من مشاهدتها يا جنرال ، فإني أشعر بشيء من التوعك .

فقال الجنرال في نبرة توحي بالاهتمام :

– حقًّا ؟ .. لقد كنت أتمنى أن نخرج الليلة إلى الصيد .. ومع ذلك لا غرابة في أن تكون متوعكا مكدودا بعد أن سبحت هذه المسافة الطويلة ، ولكنك سوف تسترد نشاطك غدا ، وتشعر كأنما ولدت من جديد .

وعندئذ تمارس لعبة الصيد ، أليس كذلك ؟

ونهض "**رينفورد**" واقفا ، واتجه إلى الباب في خطوات متعجلة ، في حين كان الجنرال يخاطبه قائلا :

– إنه ليؤسفني حقًّا أننا لم نخرج الليلة إلى الصيد ، فقد كانت بي لهفة إلى الإثارة ، ولست أشك في أنني سأجد فيك طريدة لا مثيل لها لما جُبلت عليه من ذكاء وحنكة وخبرة بمسالك الغابات .. وعلى أية حال فالغد ليس بعيدا .

ثم استطرد يودع ضيفه :

– طابت ليلتك يا سيد "**رينفورد**" ، وأرجو لك نوما هادئا .

◆◆◆◆◆

ولكن كيف يواتيه النوم ، وهو يعلم أنه في غده سوف يصبح طريدة صيد يلاحقها مجنون في يده مسدس قاتل .

كان الفراش مريحا وثيرا ، وكانت البيجاما من الحرير الخالص ، وكان السكون شاملا ، وكان هو نفسه متعبا مكدودا – ومع ذلك جافاه النوم، واستبد به الأرق .

كان منطرحا على الفراش ، وعيناه مفتوحتان ، وهو يحدق إلى الظلام ، وفي رأسه تصطخب الأفكار والخواطر موجة بعد موجة .

وسمع مرة وقع خطى خفيفة مختلسة خارج غرفته ، وخطر له أن يفتح الباب ليتبين من يكون هذا الطارق الليلي ، وزايل فراشه ، واتجه إلى الباب ، ولكنه استعصى وأبى أن يفتح .. كان موصدا من الخارج . وسار إلى النافذة، وأطل منها .

لقد أسكنوه غرفة في أحد أبراج القصر .. غرفة تبعد عن الأرض عشرة أمتار ولا نتوءات في الجدار يتعلق بها ليهبط إلى الأرض ، ولا سبيل إلى القفز وإلا دقت عنقه وتهشمت أضلاعه .. وحتى إذا استطاع أن يصل إلى الأرض سالما ، فسوف تكون الكلاب المتوحشة في انتظاره لكي تنهش لحمه وتمزقه إربا .

لا مفر إذن ! .. إن عليه أن ينتظر في الغد مصيره .

وكان ضوء القمر خابيا ، ولكنه استطاع على هدي هذه الأشعة الضئيلة أن يتبين معالم الفناء .. وهناك رأى تلك الأشباح المخيفة تروح وتغدو ، والشرر يطق من عيونها الشرسة .

ويبدو أن الكلاب فطنت إلى وجوده في النافذة ، فدفعت إليه رؤوسها ، وأخذت تزمجر وتزوم .

وارتد "**رينفورد**" ، إلى الفراش وانطرح عليه ، وحاول أن ينام ، وأخيرا غلبه النعاس ، بيد أنه صحا فجأة على دوي طلق ناري ، وقد أوشك نور الصباح أن ينبلج .

◆◆◆◆◆

لم يظهر الجنرال "**زاروف**" مرة أخرى إلا وهما على مائدة الغداء .

وأبدى الجنرال اهتماما كبيراً بالاستفسار عن صحة ضيفه ، وهل أصاب من النوم حظا طيبا ؟ . .

وقال الجنرال :

– أما عني أنا فإني أشعر بأنني لست على ما يرام . . في الليلة الماضية عاودني دائي القديم . . الشعور بالملل . . نعم . . . لقد بدأت أشعر يا سيد "**رينفورد**" بأن الصيد لم يعد يثيرني .

وتناول الجنرال قطعة من الحلوى واستطرد :

– لم يكن الصيد ممتعا ليلة الأمس . . لقد استبد الارتباك بالرجل الطريدة ، فاتخذ في هروبه طريقا مستقيما ، فكان من الهين عليَّ أن أتعقبه . . . ألا تبًّا لهؤلاء البحارة . . ! إنهم على غاية من الغباء . . . إنهم لا يعرفون كيف يسيرون في الغابات ، وهذا هو ما يضايقني . . . إني أريد رجلا يعرف كيف يضللني ، وكيف يرهقني بالبحث عنه . . . هل لك في كأس أخرى من الشراب يا سيد "**رينفورد**" . .؟

وقال "**رينفورد**" في صوت صارم النبرات :

– أصغ إليَّ يا جنرال . . . إني أريد أن أغادر هذه الجزيرة في الحال .

ورفع الجنرال حاجبيه الكثيفين ، وأوحت قسمات وجهه بأنه مستاء لما سمع .

وقال :

– ما هذا الذي تقول يا عزيزي "**رينفورد**" . . ؟إنك لم تكد تصل إلى الجزيرة ، فكيف تريد أن تبادر بالرحيل ؟ ثم إنك لم تمارس لعبة الصيد . . . إنك . . .

بيد أن "**رينفورد**" بادر الجنرال قائلا :

– إني أريد أن أسافر اليوم .

وتأمله الجنرال بنظرة ثابتة يتفحصه ، وبدا الجذل في عينيه . ثم ملأ كأس ضيفه بالشراب وقال :

– الليلة سنقوم بالصيد .. أنت وأنا .

وهز "**رينفورد**" رأسه سلبا وقال :

– كلا يا جنرال ... إني لن أصطاد .

وهز الجنرال كتفيه في غير مبالاة ، وقضم قطعة من التفاح ، ثم قال :

– إيه .. ! فليكن لك ماتشاء يا صديقي .. إني لا يمكن أن أحرمك من حق الاختيار ، ولكن من حقي أن أنبهك إلى أنك ستجد أن فكرتي عن الصيد أرحم بكثير مما سيفعله بك "**إيفان**" .

وأومأ برأسه إلى ناحية "**إيفان**" الذي كان منتصبا في ركن القاعة كأنه تمثال من الجرانيت .

وصاح "**رينفورد**" :

– هل تعني أن ...

ولكن الجنرال ابتدره مقاطعا :

– ألم أخبرك من قبل يا سيد "**رينفورد**" بأنني حين أذكر الصيد فإنما أتكلم جدا لا هزلا .. ! إما الصيد ، وإما السوط في يد "**إيفان**" يفري البدن ويهرأ اللحم .

ورفع الجنرال كأسه إلى شفتيه وهو يقول :

– الآن سأشرب نخب طريدة رائعة تضاهيني عقلا وذكاء .. إني أشرب نخب السيد "**رينفورد**" .

وأفرغ في جوفه ما في كأسه ، في حين ظل "**رينفورد**" جامدا لا يتحرك ولا يتناول شرابه .

واستطرد الجنرال قائلا في حماس :

– إنك ستجد هذا الطراز من الصيد مثيرا رائعا ... ذكاؤك ضد ذكائي ... وحِيلُك مقابل حِيلِي ... وخبرتك بالغابات إزاء خبرتي ... إنها أمتع من لعبة الشطرنج ... رجل يتحرك على رقعة الغابة مقابل حركة من رجل آخر ... إنه شطرنج آدمي ... وأخيرا : "كش الملك" . يالها من لعبة ممتعة !

وفي صوت أجش قال "**رينفورد**" :

– وإذا كسبت .. ؟

وأجاب "**زاروف**" : إذا لم أعثر عليك حتى منتصف الليلة الثالثة ، فسأعترف بأني انهزمت ، وفي هذه الحالة ترحل على مركبي الشراعي لتنزل في إحدى الجزر المأهولة .

وقطب "**رينفورد**" حاجبيه ، وأدرك الجنرال ما يجول في خاطره ، فابتدره بقوله :

– لك أن تركن إلى كلمتي وأن تثق بقولي .. إني رجل رياضي لا أحنث بوعد قطعته على نفسي ... ولكنني في مقابل هذا أفرض عليك شرطا له أهميته عندي .

– وما يكون هذا الشرط .. ؟

– ألا تحدث أحدا بما رأيت في هذه الجزيرة .

فقال "**رينفورد**" في لهجة عناد وإصرار :

– لن أعدك على الإطلاق .

فقال الجنرال في نبرة استياء :

– في هذه الحالة لا يمكن أن ...

ثم أمسك وبتر عبارته وقال :

– ولكن ما الذي يدعونا إلى أن نتجادل الآن في هذا .. ؟ بعد ثلاثة أيام يمكننا أن نتداول في هذا الأمر ، ونحن نحتسي كأسا من الشراب – إلا إذا ..

ورشف الجنرال جرعة من نبيذه دون أن يكمل عبارته . ثم ما لبث أن استطرد :

– سيعد لك "**إيفان**" ملابس الصيد يا سيد "**رينفورد**" ، مع كمية وفيرة من الطعام ، وخنجرا من تلك الخناجر التي يستعملها الصيادون .

ونفث من سيجارته حلقة كثيفة من الدخان ، ثم قال :

– دعني أسدي إليك نصيحة مهمة ... ابتعد عن الركن الجنوبي الشرقي من الجزيرة ، ففيه يقع المستنقع الكبير ، ونحن نسميه : "مستنقع الموت" ، وهناك

أيضًا منطقة "الرمال الناعمة" التي تغوص فيها القدم ، ولا يملك المرء أن ينتزع منها قدميه ، مهما بلغ من القوة والصمود ، ويظل يغوص في الرمال الناعمة ويغوص ، إلى أن تبتلعه وتنطوي فوقه .

ومضى الجنرال يقول محذرا :

– حدث مرة أن اتجه أحد البحارة في هروبه إلى هذه المنطقة ، وغاصت قدماه في الرمال الغادرة ، ولحق به "**لازار**" أجمل وأقوى كلب عندي ، فابتلعته الرمال ، وحزنت عليه حزنا شديدا .

وقال "**رينفورد**" لنفسه :

– هذا الرجل لابد أن يكون معتوها ... لقد حزن من أجل الكلب ، ولم يحفل بذلك الإنسان الذي ابتلعته الرمال . ونهض الجنرال واقفا وهو يقول :

– إني أستأذنك في الصعود إلى مخدعي ، إذ أحب أن أرتاح قليلا ، أما أنت فلا وقت لديك للراحة ، إذ يجب أن تتقدمني ببضع ساعات ، فعليك أن تبادر الآن إلى الخروج ، أما أنا فسأبدأ في اقتفاء أثرك عندما يحل الغسق ، وينجاب ضوء النهار .. إن الصيد في الليل أشد متعة وإثارة .. والآن إلى اللقاء يا سيد "**رينفورد**" ، وأتمنى لك صيدا موفقا .

وانحنى الجنرال "**زاروف**" أمام " **رينفورد**" يحييه ، وغادر القاعة وضحكاته تجلجل في أركانها .

وإن هي إلا دقائق حتى جاء "**إيفان**" يحمل معدات الصيد : ملابس كاكي ، وكيس زاخر بالطعام ، وجراب فيه خنجر كبير طويل النصل وأدرك "**رينفورد**" عندئذ أن مصيره في كف القدر .

◆◆◆◆◆

انقضت ساعتان و "**رينفورد**" دائب على شق طريقه في باطن الدغل المتكاثف الأشجار .

وكان لايفتأ أن يردد في نفسه :

– يجب أن أحتفظ بأعصابي هادئة ساكنة .... يجب أن أبقى رابط الجأش .

كان يعلم أنه إن اضطرب وتوترت منه الأعصاب ، فإن أمله في النجاة سوف يتبدد وينهار .

حين خرج إلى هذه المغامرة التي فُرضت عليه لم يكن صافي الذهن ثابت الجنان ، بل كان مضطربا لايدري ما ينبغي أن يفعل .

كان كل همه أن يبتعد عن القصر إلى أقصى حد ممكن ، حتى تكون بينه وبين الجنرال "**زاروف**" مسافة كبيرة تهيىء له فرصة الأمن والنجاة . فانطلق مبتعدا ، لاهم له إلا أن يسرع بقدر ماتتحمل ساقاه ، وقد استبد به شيء من الذعر .

وأخيرا توقف ، وكف عن المسير ، واشتد صفاء ذهنه ، وأخذ يسأل نفسه عما ينبغي أن يفعل ... إن هذا الفرار لن ينقذه من الموت ... إن الجنرال – وهو الصياد القدير – سوف يهتدي إلى أثره ويلحق به .

ما الذي فعله حتى هذه اللحظة ..؟ لقد ابتعد كثيرا .. هذا صحيح .. ولكنه سار في خط مستقيم ، والفرار في خط مستقيم من الهين أن ينكشف ، فكأنه قضى على نفسه بالإعدام .

إذ لن تمضي إلا فترة وجيزة ، ثم يجد نفسه على الشاطئ مواجها البحر وبهذا يصبح هيكله ظاهرا يستطيع المرء أن يراه من مسافة بعيدة .

تريث "**رينفورد**" برهة مفكرا ، يحاول أن يهتدي إلى طريقة يضلل بها هذا السفاح .

وقال "**رينفورد**" يخاطب نفسه :

– سأهيىء له أثرا يتبعه ، ويضلله .

وانتحى جانبا بعيدا عن طريق "المدق" الذي كان قد اتخذه وهو يسير في الغابة ، وأخذ يمشي في حركات دائرية ، ذهابا وإيابا ، متبعا في هذا أسلوب الثعالب في تضليل مطارديهم ، فإذا ما جاء الجنرال يقتفي أثره ، فلن يعرف إن كان "**رينفورد**" قد اتجه إلى الأمام أم رجع إلى الوراء ، وذلك لكثرة خطوط الأثر وتداخلها بعضها في بعض .

ولاشك أن الجنرال "**زاروف**" سيقف أمام هذه الآثار حائرا مرتبكا ، لايدري أيها يقتفي ، وهذه الفترة يكون "**رينفورد**" قد ابتعد عنه مسافة أكبر ، وهو ما يهدف إليه .

كانت ليلة مكدودة أرهقت "**رينفورد**" وبددت كل قواه .

فقدمه كليلة لاتقوى على السير ، ووجهه مرعى خصب للخدوش الناشئة عن أغصان الأشجار التي كانت تحتك بوجهه ، وهو يخترق الغابة في خضم الظلام بيد أنه كان يعلم أن من الجنون أن يضرب في أحشاء الغابة خلال الليل ، حتى ولو توافرت له القدرة على المشي .

كانت حاجته إلى الراحة ماسة ملحة ، ومضى يقول في نفسه :

ـ حتى الآن قمت بدور الثعلب ، فراوغت الجنرال ، ألقيت في طريقه بأثر زائف لعله يضلله ويعميه عن مكاني .

ولكن عليَّ منذ اللحظة أن أقوم بدور القط الذي قرأنا عنه في قصص الأطفال .

كانت على كثب منه شجرة ضخمة ، لها جذع كبير ، غصونها وارفة في متناول يده . ومضى إلى الشجرة ، وأخذ يتسلقها ، وهو يحرص على ألا يخلف وراءه أثر ينم عن أنه صعد الشجرة . ثم زحف فوق غصن عريض متين ، وانطرح فوقه في استرخاء ، ليصيب حظا من الراحة .

وأفاضت عليه الراحة شعورا بالثقة والأمن . فحتى صياد قدير مثل "**زاروف**" لا يمكن أن يهتدي إلى مخبئه هذا .

بهذا أخذ يحدث نفسه . على أنه ما لبث أن قال :

ـ لقد طمست أثري ، وافتعلت آثاراً جديدة مضللة . . .

إنها آثار تحير أقدر الصيادين ، ولايمكن أن يكتشف زيفها إلا الشيطان .

ولكن مايدريه أن "**زاروف**" ليس هو الشيطان نفسه متخفيا وتتابعت ساعات الليل بطيئة متمهلة ، ورغم السكون الذي يسود الغابة ، لم يغمض له جفن ، إذ استبد به الأرق ، لفرط انزعاجه مما قد يحدث حين يهتدي الجنرال

"**زاروف**"إلى أثره .

وبدأت ظلمات الليل تتبدد تدريجا ، وانتشرت في صفحة السماء غلالة رمادية وصكت مسامع "**رينفورد**" زقزقة العصافير حين تبلجت أضواء الفجر وأدرك "**رينفورد**" بصدق حسه أن الطيور لاتزقزق فجأة بهذه الصورة إلا إذا كان هناك "شيء" يتحرك في الغابة ، وهذا الشيء قد يكون حيوانا أو إنسانًا .

ولكن هنا – في مثل هذا الموقف ، لابد أن يكون القادم إنسانا ، وهذا الإنسان لابد أن يكون الجنرال "**زاروف**" .

كان الجنرال قادما يقتفي أثر طريدته ، "**رينفورد**" .

كان آتيا في بطء ، في خطوات مختلسة . خطوات حذرة متوجسة .

ومد "**رينفورد**" جسده فوق الغصن العريض ، ومن خلال فرجة صغيرة وسط الأغصان ، أخذ يتطلع إلى أسفل ، ليرى ما سوف يفعله الجنرال .

وكان "الشيء" الذي يقترب رجلا ، وكان هذا الرجل هو الجنرال "**زاروف**" .

كانت عينه مركزة على الأرض ، يتأمل الأثر الذي خلفه طريدته وتوقف الجنرال على قيد خطوات معدودات من الشجرة ، ثم ركع على ركبتيه ، وأخذ يفحص الأرض على ضوء الفجر الباهت .

واقتحمت رأس "**رينفورد**" فكرة جنونية ... لقد خطر له أن يقفز من الغصن الذي يرقد فيه ، وأن ينقض على الجنرال "**زاروف**" ، شأن الفهد ، وأن يغمد خنجره في صدره فيرديه قتيلا .

بيد أنه لمح في يد الجنرال شيئا يبرق ويلمع .. إنه مسدس ، في رصاصاته يكمن الموت الذريع ، فنفض عنه هذا الخاطر الأحمق ..

واعتدل الجنرال واقفا ، ومضى يهز رأسه عدة مرات ، بطريقة توحي بأن ثمة أمرا ما يحيره .

وأخرج الجنرال من جيبه علبة سجائره الذهبية ، وتناول منها سيجارة أشعلها ، وجذب منها عدة أنفاس ، فتصاعد إلى أنف "**رينفورد**" أريجها العطري فكتم أنفاسه حتى لا تفاجئه عطسة تكشف مخبأه .

وزايلت عينا الجنرال الأرض ، واستقرتا على جذع الشجرة ، وأخذت العينان تتسلقان الشجرة ، بوصة بعد بوصة .

وتسمر "**رينفورد**" في موضعه فوق الغصن ، وتوترت عضلاته ، وتهيأ للانقضاض على خصمه - حين تجيء اللحظة المناسبة .

بيد أن عيني الصياد توقفتا عن تسلق الشجرة ، قبل أن تبلغا الغصن الذي يرقد عليه "**رينفورد**" - الطريدة .

وارتسمت على شفتي الجنرال ابتسامة خفيفة ، أخذت تتسع وتنتشر حتى اشتملت وجهه كله . ثم استدار وأولى للشجرة ظهره ، ثم ابتعد يسير في استرخاء وفي خطوات متمهلة ، وأخذ صوت الأعشاب وهي تتكسر وتنهصر تحت قدميه - يتضاءل ويخف تدريجيا ، حتى لم يعد يسمع .

كان أول خاطر طرأ بذهن "**رينفورد**" هو أن الجنرال صياد قدير حقًّا ، فهاهو ذا قد استطاع أن يقتفي أثر "**رينفورد**" حتى انتهى إلى الشجرة ، رغم الأثر المضلل الذي ألقاه "**رينفورد**" في طريقه ليخدعه . وإذا كان لم يكتشف طريدته راقدا فوق الغصن ، فلعل هذا مرجعه إلى المصادفة البحتة ، ولكن هذا لاينقص من قدر الجنرال وبراعته .

ونحى "**رينفورد**" هذا الخاطر عن ذهنه ، وقفز مكانه خاطر آخر بعث في أوصاله رعدة جارفة . . . خاطر ملأ قلبه رعبا وفزعا .

لماذا ابتسم الجنرال وهو واقف تحت الشجرة قبل أن يستدير راجعا . . ؟ نعم . . لماذا ابتسم . . ؟

كانت الحقيقة واضحة جلية ، كتلك الشمس التي تتسرب أشعتها من خلال الأكمة الكثيفة ، ومع ذلك كان "**رينفورد**" يحاول أن يخدع نفسه فلا يصدقها .

ولكنه أخيرا أمن بها : كان الجنرال يلعب به ويعبث كما يفعل القط مع الفأر لقد اهتدى الجنرال إلى مربضه فوق غصن الشجرة ولكنه لم يشأ أن يهاجمه ويطلق عليه النار . . لقد ادخره ليوم آخر من المطاردة . . . ادخره لمتعة الصيد في اليوم

التالي ولذلك ابتسم ، وارتد راجعا ، دون أن يحاول مواصلة المطاردة .

إنها لعبة القط والفأر ، و "**رينفورد**" هو الفأر والجنرال هو القط الذي أمامه الفأر ، فيغضي عنه ، ويتركه يبتعد قليلا هاربا ، ثم إذا به فجأة ينقض عليه ، وينشب فيه أظفاره الحادة . وهذا ما سوف يفعله به القط الجنرال .

وغشيت قلب "**رينفورد**" موجة كاسحة من الخوف .

وقال في نفسه في تصميم وإصرار :

– لا .. لن أفقد أبدا رباطة جأشي ... يجب أن أظل هادئ الأعصاب ، حتى يصفو ذهني ، فأهتدي إلى مخرج من هذا المأزق .

وهبط من فوق الشجرة ، ومن جديد أخذ يضرب في الغابة .

كانت قسمات وجهه متصلبة توحي بالإصرار ، وكان عقله متحفزا ، ويعمل ويفكر بلا هوادة ، باحثا عن طريق الخلاص .

وعلى مسافة مائة متر من مكمنه توقف "**رينفورد**" حين رأى شجرة ضخمة ميتة مائلة على جنبها فوق شجرة أخرى صغيرة لاتزال نامية حية .

ووضع "**رينفورد**" كيس الطعام على الأرض ، وتناول خنجر الصيد من جرابه، وشرع يعمل بهمة لا تعرف الكلل وأخيرا أنجز المهمة التي شرع فيها، وسوف يرى ماسوف يحدث حين يأتي القط .

وحمل كيس الطعام ، ومضى مبتعدا ، واختبأ وراء شجرة كبيرة على مسافة ثلاثين مترا ، وقبع في مخبئه الجديد يترقب وينتظر ، وكان يعلم أنه لن ينتظر طويلا ، فإن القط لن يلبث أن يحضر لكي يلعب بالفأر .

وأخيرا جاء الجنرال .

جاء يتبع الأثر ، شأن كلب الصيد الذي لايخطئ .

إن لهذا الصياد مقدرة فذة لاتجارى ، فعينه لايمكن أن تخطئ شيئا ، فلا يفوته غصن مهصور ، ولا عشب وطئته الأقدام ، ولا ورقة شجر ديست فتكرمشت ، ولا أثر لقدم فوق الأرض .. إن له لعينين ثاقبتين عجيبتين هذا القوقازي .

وها هو ذا قد أتى .... ها هو قد وصل إلى الشيء الذي أعده "**رينفورد**" قبل أن يكتشفه ويتبين الفخ المنصوب ...

لقد لمست قدمه الغصن البارز المثني الذي كان بمثابة الزناد .

ولكن في اللحظة التي لمس فيها حذاؤه "الزناد" انتبه الجنرال إلى الخطر الذي استهدف له ، وقفز إلى الوراء مرتدا بخفة القرد .

بيد أن وثبته لم تكن بالسرعة المنشودة ، فإن الشجرة الكبيرة الميتة مالت فجأة لتستقر فوق الشجرة الصغيرة الحية ، ولو أن الجنرال لم يثب إلى الوراء لوقعت فوقه وسحقته . ولكن هذه القفزة أنقذته من سقوط الشجرة فوقه ، إذ لم يمسه منها إلا بعض أغصان لطمت كتفه بقوة ، فترنح وكاد أن يقع أرضا ، لولا أنه تماسك وثبت مكانه .

ووقف الجنرال يدلك كتفه المصاب ، وفي ذعر وخوف سمع "**رينفورد**" ضحكة الجنرال الهازئة ، ثم تناهى إليه صوته وهو يقول صائحا :

– إذا كنت يا "**رينفورد**" في نطاق صوتي ، فدعني أهنئك على ما فعلت .. إنها في الحق مكيدة بارعة ، وقَلّ من الناس من يجيد نصب هذا الفخ .. لا شك أنك ذهبت إلى جزيرة "ملقا" ، وتعلمته منهم ، فأهالي هذه الجزيرة هم الوحيدون في العالم الذين يجيدونه .. إنك بحيلك ومكائدك تضاعف متعتي بالصيد .. إنني راجع الآن لأضمد الجرح الذي أصاب كتفي ولكني راجع بالتأكيد .. نعم ... إني راجع فانتظرني ... سوف أواصل المطاردة حالا فجرحي بسيط .

واستدار الجنرال "**زاروف**" راجعا ، وما لبث وقع أقدامه أن تضاءل وخفت حتى لم يعد يسمع .

◆◆◆◆◆

خرج "**رينفورد**" من مكمنه وراء الشجرة ، وتابع فراره ، وكان الآن فرارا حافلا باليأس ... فرارا لا أمل فيه ولا رجاء .

وأخيرا انحدرت الشمس إلى المغيب ، وبدأ الظلام يشتمل الأرض ، و"**رينفورد**" مجد في هروبه بلا هوادة .

وأخذت الأرض تبدو تحت قدميه أكثر ليونة ، وخلت تدريجا من الحصى والحجارة ، ولم يعد يعاني في سيره المشقة التي ألفها .

وعلى حين فجأة ، وهو يخطو إلى الأمام ، غاصت قدمه في أرض رخوة لينة . تلك هي الرمال المتحركة التي تبتلع كل من يحاول أن يمشي فوقها .

وحاول أن ينتزع قدمه ، ولكن الأرض كانت تشفط قدمه بقوة وإصرار ، كأن يد جبار قوي تمسك بكاحله وتجذبه إلى أسفل . وارتمى على ظهره فوق الأرض الصلبة، وبجهد فائق مضن استطاع أن ينتزع قدمه .

وعرف عندئذ مكانه .... إنه عند الرمال المتحركة ... عند "مستنقع الموت" كما يسمونه .

وأثارت الأرض اللينة الرخوة فكرة جديدة في رأسه .

ابتعد عن حافة المستنقع مترين أو ثلاثة ، ثم شرع يحفر خندقا ، مستعينا بخنجره . ولم يعان "**رينفورد**" مشقة في إنشاء هذه الحفرة ، فقد ألف هذا العمل حين كان ملتحقا بالجيش ، فإن الخندق هو ملاذ النجاة للجندي عند هجوم الطائرات .

وحين أنجز العمل كانت لديه حفرة عميقة في طول قامة الإنسان .

ومضى إلى الشجر القريب يقطع منه كمية من الأغصان السميكة ، وأخذ يبريها بخنجره ، حتى صار لها سن مدبب حاد ، ثم زرعها في قاع الحفرة ، جاعلا أسنانها متجهة إلى أعلى .

وحمل إلى الحفرة كمية كبيرة من الأغصان والأعشاب فرشها فوقها ، فسترت فوهتها ، وأصبحت خافية على من يصل إليها ، فلا يتبين أن تحت هذه الأعشاب حفرة فيها أسياخ من الأغصان ذات الأسنان المدببة .

وحين انتهى "**رينفورد**" من إعداد هذا الفخ الجديد قبع وراء جذع شجرة ، يترقب ما سوف يقع .

كان يعلم أن مطارده موشكا أن يحضر ، فقد سمع وقع خطاه على الأرض اللينة، كما حملت إليه هبات النسيم العطر الذي ينبعث من السجائر التي يدخنها . وكان وقع الأقدام يوحي بأن الجنرال يسير بسرعة أكبر من عادته المألوفة .

وكان "**رينفورد**" في موضعه المنزوي وراء الشجرة لا يرى الجنرال ، ولا يرى الحفرة التي أعدها ، ولكنه كان قابعا في مكمنه ، يترقب وينتظر ، والدقيقة التي تمر به تتراءى له عاما طويلا ممتدا .

وطغت عليه نزوة جارفة بأن يطلق صيحة فرح ، حين سمع خشخشة الأعشاب والأغصان التي تغطي فوهة الحفرة وهي تتكسر وتتهاوي ، ثم تتلوها صرخة ألم حادة دلته على أن أسنان الأسياخ المدببة قد أصابت هدفها .

وقفز "**رينفورد**" من موضعه وراء الشجرة ، ثم ارتد راجعا في ذعر وخوف .

ذلك أنه رأى على قيد متر واحد من الحفرة شبح رجل منتصب ، وفي يده بطارية يسلط ضوءها إلى قاع الحفرة .

ولم يكن هذا الرجل إلا الجنرال "**زاروف**" .

إذن من الذي وقع في الحفرة .. ؟ من الذي انغرزت في جسده الأسياخ .. ؟

وجاء صوت الجنرال عاليا يقول :

– لقد أحسنت صنعا يا "**رينفورد**" ... إن هذه الحفرة التي تصاد بها النمور في "**الهند**" قد اقتنصت كلب صيد من خير كلابي ... إني أسجل بهذا العمل نقطة أخرى لصالحك يا سيد "**رينفورد**" ، ولكن ما عساك تصنع حين أطاردك ومعي كلابي كلها .. ؟

واستطرد الجنرال : إني ذاهب الآن إلى البيت لأصيب قسطا من الراحة ، وإني لممتن لك على هذه الأمسية الممتعة الحافلة بالإثارة ... وإلى اللقاء .

◆◆◆◆◆

عند بزوغ الفجر كان "**رينفورد**" راقدا بالقرب من "مستنقع الموت" ... أرض الرمال المتحركة ، وقد استغرق في النوم لفرط ما عانى اضطرابا وتوترا في الأعصاب.

وعلى حين بغتة انتبه "**رينفورد**" من نومه على صوت تعلم منه أن الخوف حين يفاجيء المرء قد يسدد إليه صدمة تشل قدرته على التفكير .

كان الصوت آتيا من بعيد ... كان صوتا خافتا ليست له معالم واضحة ، ولكن "**رينفورد**" استطاع أن يعرفه .. إنها همهمة صادرة من مجموعة من الكلاب ... إنها كلاب تقترب وهي تزوم .

لقد صدق حين قال له الجنرال "**زاروف**" ليلة الأمس إنه استطاع أن يتخلص من كلب واحد ، ولكن ما عساه يفعل إن جاء الجنرال وفي صحبته قطيع من الكلاب.. !

ولم يكن أمام "**رينفورد**" إلا أمر من أمرين :

إما أن يلزم مكانه لا يبرحه ، وينتظر ويترقب ما سوف يجري ، وهذا معناه أنه قضى على نفسه بالموت ... معناه أنه قرر أن ينتحر على يد هذه الكلاب المتوحشة، حين تنقض عليه ، فتنهش لحمه ، وتمزقه إربا ، ولا تدعه إلا أشلاء متناثرة .

أما الحل الثاني ، فهو أن ينطلق هاربا بأقصى سرعة . وهذا معناه أنه سيؤجل المصير المحتوم ، إذ الموت مقضي به في الحالين ، سواء بقي أم هرب.

ولبث برهة جامدا مكانه ، يسائل نفسه عما ينبغي أن يفعل ، وهدير الكلاب يزداد في سمعه جلاء .

وفجأة انبثقت في ذهنه فكرة أخرى ... فكرة قد تسفر عن نجاته .. إن النجاة ليست بالأمر المؤكد ، ولكن الفرصة سانحة ، فلم لا يجرب .. ؟ لم يتقاعس ؟

وانطلق يجري متباعدا عن مستنقع الموت .

بيد أن هدير الكلاب كان يلاحقه ... كانت الهمهمة تقترب ، وتقترب ... كانت تشتد أكثر ، وأكثر – وهو ماض في ركضه ، لا يلوي على شيء .

وأشرف أخيرا على البحر ، وتسلق شجرة في جرف ينحدر إلى الماء في خط مستقيم رأسي .

ومن مكمنه فوق الشجرة ألقى ببصره ناحية الغابة . ورأى الشجيرات تهتز وتتمايل ، ثم استطاع أن يرى الجنرال "**زاروف**" بقوامه النحيف يسير موسعا خطاه .

واستطاع "**رينفورد**" أن يميز شبح رجل يسير أمام الجنرال ... إنه رجل مديد القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الجسم ، ولم يداخله شك في أن هذا العملاق هو الجندي "**إيفان**" .. الحارس الأصم الأخرس . وكان يبدو من مشيته وحركاته إن ثمة ما يجره ويسحبه ، وكان هذا الشيء هو قطيع كلاب الصيد ، إذ كان "**إيفان**" ممسكا بمقودها .

وكانت النتيجة جلية لا شك فيها : إن هي إلا دقائق معدودات ، وتصل إليه الكلاب ، وتتسلق الشجرة ، ثم تنقض عليه ، فلا تدعه حتى يصبح جثة هامدة .

وفكر في حيلة قد تنقذه ، حيلة تعلمها من أبناء "**أوغندا**" حين زارها في رحلة للصيد والقنص هبط من الشجرة ، وأمسك بغصن لين ، وربط فيه خنجره ، وجعل سن النصل موجها إلى الممر الضيق الذي لابد أن يسلكه القادمون ، ثم اتخذ من فرع شجرة كرم حبلا ربط به الغصن المشدود إليه الخنجر ، وثنى الغصن إلى الوراء وثبت فرع الكرم في الأرض ، بأن وضع على طرفه حجرا . فإذا جاءت الكلاب ، وسارت في طريق المدق الذي لا يوجد طريق غيره ، فإنها ستطأ الحجر الموضوع فوق فرع الكرم ، ويتزحزح الحجر من مكانه ، وينفرد الغصن بقوة دافعة شديدة ويستقر الخنجر في أول قادم على طريق المدق ، وهذا إما أن يكون الجندي "**إيفان**" ، أو الجنرال "**زاروف**" .

وصعد "**رينفورد**" إلى إحدى الأشجار ، وعينه على طريق المدق .

وعلى حين بغتة أمسكت الكلاب عن الهدير ، وكفت عن الهمهمة .. لابد إذن أنها وصلت إلى موضع الخنجر ، وداست على حبل الكرم المشدود إليه ، فما الذي

حدث يا ترى ؟ ..

واشرأب "**رينفورد**" بقامته ، وجعل يحدق إلى طريق المدق ، وأدرك عندئذ أن الأمل الذي تعلق به خاب وانهار ، فقد رأى الجنرال "**زاروف**" منتصبا على قدميه ، أما الجندي "**إيفان**" ، فلم يكن له وجود .

إذن فقد غاص الخنجر بعد انطلاقه في صدر "**إيفان**" ، وقد كان يتمنى أن يغزو صدر الجنرال .

وأسرع "**رينفورد**" يهبط إلى الأرض ، وما كادت قدماه تستقران عليها حتى عادت الكلاب تزوم من جديد ، وانطلقت في أعقابه ، بعد أن تناهت رائحته إلى خياشيمها .

ظل "**رينفورد**" منطلقا في ركضه حتى نهاية الجرف المطل على البحر ، وتسمر مكانه مترددا .

واقتربت منه الكلاب ، وهي ترسل نباحها الوحشي . وقد دنت من الطريدة، وإن هي إلا بضعة أمتار ، ثم تنقض عليها فتمزقها .

ودنا "**رينفورد**" من حافة البحر ، ووقف محجما .

واقتربت الكلاب .. وثبة بعد وثبة .. وهي تزمجر في وحشية .

وقبل أن تثب الكلاب على "**رينفورد**" ، كان "**رينفورد**" قد وثب إلى البحر.

وحين وصل الجنرال "**زاروف**" وكلابه إلى حافة الجرف وقف يتأمل مياه البحر بعين فاحصة ، هز كتفيه في ابتهاج ، واستوى جالسا على صخرة ناتئة ، وأشعل إحدى سجائره المعطرة ، ومضى يدخنها في استمتاع واضح.

وإذ فرغ من تدخينها قذف بالعقب إلى البحر ، وهو يردد في صوت مرح :

– أنت أيضا إلى الأعماق ! ..

ثم نهض واقفا ، وارتد راجعا إلى بيته ، وهو يصفر لحنا موسيقيا مرحا.

◆◆◆◆◆

في ذلك المساء تناول الجنرال "**زاروف**" عشاء دسما شهيا ، وشرب عدة أقداح من الشراب ، وكان يبدو سعيدا هانئا ، وإن كان هناك أمران يعكران عليه صفوه :

أولهما : أنه كان يعرف أنه سيجد مشقة في العثور على بديل يحل محل "**إيفان**" .

وثانيهما : أن طريدته "**رينفورد**" أفلت منه .. إنه حقيقة غاص في أعماق البحر، وطوته اللجة ، ولكنه لم يكن يريد له أن يموت غريقا ، وإنما كان يتمنى أن يقضي عليه بالرصاص بمسدسه ، حتى يستمتع بلذة الصيد والقنص .. ولكن ما العمل ؟ لقد آثر "**رينفورد**" أن يُقضى عليه منتحرا على أن يقع في أيدي الكلاب .

ومضى الجنرال إلى قاعة المكتبة ، وتناول كتاب شعر ، وانكب عليه يطالعه، حتى يذهب عن نفسه ما كان يراوده من ضيق .

وإذ أرسلت ساعة الحائط عشر دقات صعد الجنرال مخدعه .

خلع ثيابه ، وآوى إلى فراشه ، ثم أطفأ النور . وعندئذ سمع حفيفا عند النافذة ، وعلى ضوء القمر الذي تتسلل أشعته الواهنة إلى المخدع رأى رجلا يبرز من وراء الستار المسدل على النافذة .

وقال الجنرال وهو ما زال راقدا في فراشه :

– من أنت ؟ .. من هناك ؟ ..

وحين سقط شعاع القمر على وجه الرجل عرفه على الفور .

وهتف الجنرال :

– "**رينفورد**" ؟ .. إذن فقد نجوت من الغرق ؟ .. ولكن بحق السماء كيف جئت هنا ؟!

– جئت سابحا .. إن السباحة أسرع بكثير من القدوم عن طريق الغابة .

وابتسم الجنرال وقال :

– دعني أهنئك يا "**رينفورد**" .. لقد كسبت الجولة ، وفزت في لعبة المطاردة .

وتكلم "**رينفورد**" ولكن دون أن يبتسم .

قال في خشونة وجفاء :

– ومن قال لك إن لعبة المطاردة قد انتهت ؟ .. منتصف الليل هو موعد انتهاء المباراة ، وأنا حتى اللحظة ما زلت ذلك الحيوان المطارد ، وأنت ما زلت الصياد .. فهيا استعد يا جنرال ، وكن على حذر .

وقال الجنرال :

– فليكن .. إذن المطاردة قائمة . ومن يكسب سينام الليلة في هذا الفراش الوثير .

وهم الجنرال بأن يهب جالسا ليتناول مسدسه الموضوع على منضدة بجانب السرير ، ولكن "**رينفورد**" كان أسرع منه .

وفي تلك الليلة نام "**رينفورد**" في الفراش الوثير .

تمّت بعون الله